سلسلة أمراء النصر والتحرير

«بوح حمام»

قصة الشهيد المجاهد أنيس أحمد جابر

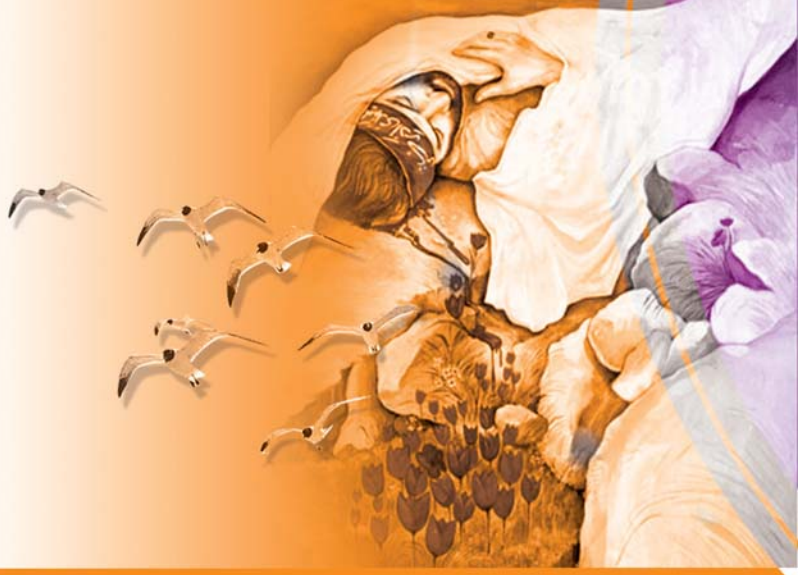

جمعية المعارف الإسلامية الثقافية
CULTURAL ISLAMIC AL-MAAREF ASSOCIATION

الإعداد والإخراج الالكتروني
www.almaaref.org

«بوح حمام»

جمعية المعارف الاسلامية الثقافية
CULTURAL ISLAMIC AL-MAAREF ASSOCIATION

جمعيّة المعارف الإسلاميّة الثقافية
بيروت . لبنان . المعمورة . الشارع العام
هاتف: ٠١/٤٧١٠٧٠ـ ص.ب. ٢٤/٥٣ . ٢٥/٣٢٧

الإعداد والإخراج الالكتروني
www.almaaref.org

الكتاب: بوح حمام

نشر: جمعية المعارف الإسلامية الثقافية

الطبعة الأولى كانون الأول 2005م - 1426هـ

جميع حقوق الطبع محفوظة

«بوح حمام»

الكاتب: أمل ناصر

بسم الله الرحمن الرحيم

إهداء

... لا زلت فينا..
يا مهدينا..
روحا
تستوطن طفلا، لا زال في المهد صغيرا..
.. عشقا..
تسكن أرجوحة حُلُم، أبكاه غيابك..
أبكاه طويلا...
بالله يا مولاي..
من غيرك.. يسمع في هذي الغربة، صرختنا؟؟
من غيرك.. يعرف كم لوعة، تسكن
ضحكتنا؟؟
أتساءل.. يا مولاي..
حتّام .. حتّام ستهبُنا من سحر هواك..
من جمر البعد.. باقة وجع.. بل أقسى؟
تستمطر من أغصان القلبِ دماءاً..
حتّام تغيب أيا مولاي؟..
أيا مولاي..
وهل سيدوم البعد.. طويلا؟
هل ستشيب العين كثيرا؟
مولاي..
إليك أهدي فيض دموعي..
بل وجع الأمة.. بل أكثر..
إليك.. بخجل.. أوّل حرف من ألمي..
«حكاية من عشق الإسلام.. حتى صار بالعشق
شهيدا..
وفوق ضريحه صلّى الصمت..
وتبقّى فوق الشاهد..
بوحا من سحر حكاية...

«بوح حمام»

- مسابقة أفضل قصة شهيد حوزوي - جامعي.
- قصة الشهيد المجاهد: أنيس أحمد جابر.
- الكاتبة: أمل جميل ناصر.
- نظم المسابقة الوحدة الثقافية المركزية - برعاية مؤسسة الشهيد في لبنان.

بطاقة هويّة:

- الاسم: أنيس أحمد جابر.
- اسم الأم: رسمية شقير.
- محل وتاريخ الولادة: محيبيب - قضاء مرجعيون ١٩٥٨.
- الوضع العائلي: متأهلّ وله فتاة.
- مكان وتاريخ الإستشهاد: عمليات بدر الكبرى في إيران. ٢٧ تموز ١٩٨٢.
- المستوى التعليمي: سنة رابعة (كلية جقوق - كلية علوم) حوزة.
- ملاحظة: الشهيد لم يقبل يوماً أن يلبس «العمامة».. لتواضعه أمام كبار العلماء الذي كان يكّن لهم الاحترام الشديد، ويعتبر أن العمامة لهم... لا لأمثاله...

«بوح حمام»

الأيام الأولى...

... جارح العذوبة!!

ذكيّ القسمات .مجبولة بطيبة التراب ملامحه! أما وجهه، فوجه قدّيس قد اقتبس بوداعة كلّ آيات الطفولة! وبراءتها الجاذبة الأخّاذة.

لطيف... يكتنف في أعماقه سرّا، تقرؤه في بريق عينيه، تهجئه من خلال سطور الحكمة المتوقّدة في كلّ سكناته...

... لشروده، معان شاعريّة أعمق فلسفة من الشعر، وعباراته الرنانة. لشروده سكون سماويّ مفعم بالرؤى!! وفي عينيه ابتسامة غربة، عميقة الأحزان، تفضح بهدوء ما يكتنزه من وعيّ، وعبقرية وما يحويه من أحاسيس تغمر الكون بالتفاتة حانية !

... يقولون...

أنّ المرء خلاصة أهله وبيئته، وما شخصيته سوى تفاعلات

«بوح حمام»

شتّى، لما ينطبع في كيانه الصافي من أساليب تربوية، اتبعت بحقه، و سلوكيات معينة شاهدها في مجتمعه الداخلي والخارجي، فترسّخت في نفسه. وعليها فإما أن يكون الطفل إنسانا مميزا، أو لا يكون!!

لكن ما يقولون، في إنسان ولد مميزا، وسط أهل بسطاء، و في مجتمع بسيط، كانت تتحكم بساطته، أفكار، ظاهرها الطمأنينة والأمان المنشود، وباطنها وحش شرس، يريد أن يلتهم عقول البشر، ويسيرهم ألعابا، وفق مصالحه الإستكبارية، وأهوائه الشرهة! نعم، فوق الضريح..

بوْح الحكاية!

نعم، فالعالم يذكر جيّدا زمن الـ١٩٥٨,,. زمن ولد فيه «أنيسا»... ولا أدري، وقتها، من علّمه، من أضاء له في الروح شمعة، صارت مع الأيام شمسا، تفرش نورها أينما حلّت! وتزرع في كلّ قلب حزمة من الضياء!!

كلّ ما يمكنني استنتاجه بفكري المتواضع، أن الرحيم يختار من بين البشر، شهداء، يجتبيهم! لهم طينة مجبولة بالنور... وقلب يذوب عشقا، ولا يقبل سوى النور.. ومن سيماهم يعرفون!!

فمنذ الطفولة، ولأنيس، صفات تترك الإنسان مندهشا.. برّقة أحّاذة، وقسماته التي تطوي سحر نبوغه..

طفل، بمنطق رجل! له لسان فصيح، عتيق من قيود اللعثمة، وحنجرة تأبى التصريح إلا بالحق. فمنذ الطفولة، وزنابق التأمل، تفتّحت في ينابيع نفسه، وصفت فوق سطحها

«بوح حمام»

تساؤلات صامتة، وتفكيرا واعيا، لطالما صلى في حضن الطبيعة حمدا وشكرا...

«طفولته» جميلة كانت!... كطفولة نحلة شغوف، أرّقتها حكايات الرحيق، في جنّات المتّقين، فراحت تلاحق زهور الأرض، وتحكي للندى، شوقها الدفين في الخبايا!

طفولة، لم يفقدها وعيها المبكر، ألوانها الزاهية. بل زادها بهاء وإشراقا. فتفتّحت متألقة تشاطر كلّ الصبية في «محيديت» وفي كلّ العالم، طفولتهم الجميلة! فحملت في رونق براءتها، شقاوة لطيفة، شهدت الوديان، والسهول قفزها. وابتسمت طرقات القرية لألعابها الحلوة..

فمؤكد.. أنه لطالما خبّأت البيوت، وأبوابها الصامتة، «أنيسا»، أو ظللته الأشجار بجذوعها الباسقة، عن أعين رفاقه وهو يلعب «الغميضة»، ويتحايل عليهم بشطارته في فن الإختفاء والتمويه.. ومؤكد أنه ولو في مرّة من المرات، أرعب والدته الحنون، بمنظر الدماء ينساب من إحدى مساحات جسده، وهو عائد من اللعب، وقد تناثر فوق جبينه الغضّ، بعضٌ من حبيبات العرق، فزادته بهاء..

... كلّ الأطفال يلعبون! وفي كلّ طفل ملاك يرفل بالبراءة، ويحرس شقاوته الساذجة. لكن ليس كلّ الأطفال، يعرفون أن

الطفولة ما هي سوى مخزون من البراءة والجمال الفطريّ العذب.

مخزون، يجب أن يشرّع نوافذه، لكي يلامس بأثيره الطفوليّ، ما تركته الأيام من غبار فوق شغاف النفوس. فالطفل جماله في حركته، في عفويته التي تسقط كلّ الأقنعة. فهو حين يعطي، يعطي بصدق من يراه أهلا للعطاء. والطفل حين ينظر إلى الأمور ويفسرها، يحللّها بعفوية ودون مراوغة!.. لأن للطفل فطرة صافية، نورانية.. ترى الأمور على طبيعتها. وأهدافها واضحة، وجليّة. لا تعرف المواربة، ولا طرائق الدجل والتلفيق..

نعم، فليس كلّ الأطفال يقدّرون قيمة طفولتهم. ويدركون بأنّ الطفولة يجب أن تلعب في أنفسهم وتضحك، ليضحك العالم من حولهم! ولتتفتح القلوب المحزونة لكل ما هو جميل، فترى نقطة الأمل، ولو في غابات من الدجى...

«أنيس»...

كان يعي قيمة الطفولة في نفسه، ومعناها.. لكن بلغة دخيلته الخاصّة! كان يلعب لا ليلعب بل ليغذي باللعب والتفاؤل، خلايا دماغه الباحثة دوما سرّ الحياة، وحقائقها المحيّرة! ولكي يضفي برونق طفولته، ألوانا من الربيع على أجواء بيته، الذي استقبله «أوّل حبّة من العنقود» فكان الفرحة والأنس للأهل أولا، ولمن أتى بعده، مكمّلا رونق العنقود، من أخوة وأخوات، ثانيا! وأيضاً، كان أنس القرية التي لطالما أيقظ أحياءها بضحكاته، وأنعش صمتها الداكن بصوته الصدّاح.

.. ففي ساحات اللعب، كان طفلا، تقرأ في ملامحه أغاني الحياة المرنمة بالنشاط والحيوية. وفي أعين رفاقه، وبسماتهم الحلوة، تتحسس ما تطويه أفئدتهم من محبة عميقة، لشخصه الذكيّ، الحاذق، والشجاع.. فتواجده بينهم كان

يغرس فيهم الطمأنينة والمحبة. هذا حتى وبين أهالي القرية، حيث كان لتواجده، نفحات أنس عظيمة الأثر. فقد كان له شخصية متّزنة ومحبوبة ويسرق الإبتسامات، حتى من بين الوجوه العابسة! فلوجهه سحنة تطفح بالأنس، ولحديثه نبرة راقية، تشدّ الأسماع، وتقطف الخفق من القلوب!

كيف لا؟! وهو المشهور بالمحدّث اللّبق.. فأينما كان، في مجلس للأهل، للكبار، أم للصغار فهو يجذب الأنظار، يستولي على الأسماع.. فيصمت الجميع، ليبقى رونق حديثه، هو الحكاية الأجمل!

أمّا إن حدث وتسلل الصمت إلى وجدانه، وكلّله بشرود مهيب، فترى الكلّ، وبلهفة أطفال لسماع حكاية.. يتهافتون: «حدّثنا يا أنيس.. حدّثنا!».

... كيف لا يتهافتون، على أنس حديثه؟! والحكايات ترفل بين عباراته المحبوكة بمهارة، عرائس من عالم فاتن!.. كيف لا، وحديثه، حديث الجنان، ولهجة الروح. حديثٌ يقبض على أسلاك الوجدان، يحرّك فيها دهشة البحث عن الحقائق ويستفزّ فيها الفراغ الهامد، لينطق بالمحبة..

«أنيس».. الذي ولد وتربّى في زمن، لا يعرف من الدّين سوى شكليات سطحية، خاوية من العمق العقائدي، والبعد

«بوح حمام»

الإيماني، الذي يصنع إنسانا رساليّا، يحمل في نفسه الحلم النبويّ لإرساء الحقّ، وإزهاق الباطل.. وهداية الأجيال لمنبع نور واحد.. هو أصل الخير كلّه!

«أنيس» الذي ولد في ذاك الزمن. كان في سماته، ومضا غريبا، سابقا لزمنه! فيضا من ترنيمة ملكوتية، لم يدرك أحد معانيها، في ذاك الوقت المتخبّط في هوّة الضياع، وبين أفخاخ المفاهيم الفاسدة.

فأصدقاء طفولته، يذكرون جيّدا تلك الأيام.. حينها، كان «أنيس»، لا يزال يشاركهم فرحة اللعب في أزقّة القرية وحاراتها، وبين سهولها. كان يلعب معهم كبقية الفتيان، وعمره لم يكن قد تجاوز العشرة أعوام.

كلّ يوم كانوا يلعبون. ففي عالم الطفولة آنذاك، كان همّ الأطفال الوحيد هو اللعب فقط! فوعيهم الملتصق بزمانهم، لم يكن يخوّلهم الخوض، واكتشاف حقائق ومفاهيم أو أموراً بالكاد كان الكبار يفهمون بها! وهي الآن في زماننا من البديهيات!

لكنّ أصدقاء «أنيس»، بدؤوا وقتها يلاحظون عليه أمراً غريباً! أمراً يتعدّى عالم الطفولة، وبساطتها الساذجة! .. فحينما يكونون مستغرقين في متعة اللعب والتسلية، إذا بهم

يفاجؤون بـ«أنيس» يتوقف، ويستأذن بالذهاب لمدة معيّنة!.. يسألونه بفضول، وانكسار: «إلى أين فلعبتنا ما زالت في بدايتها!».. ويجيب بابتسامته المحببة: «.. أمهلوني وقتا وأعود .. لديّ عمل أنجزه، ثمّ أعود..».

«عمل؟!» ويصدم الرفاق. فأيّ عمل يمكن أن يجيده طفل من ذاك الزمن ؟بل أيّ عمل له قوّة جذّابة، بحيث يمكنه أن يسرق طفلا من شباك اللعب؟! وهو الذي يرى بحكمته، أن اللعب هو اللذة الأجمل في هذه الدنيا!

وتكررت فعلته كلّ يوم! والرفاق يتحايلون عليه لمعرفة أمره مع ذاك العمل. تراه ما هو؟!.. لكنه دائما كان يجيبهم بصمته المعهود، وابتسامته الوادعة. ثم ينسلّ هاربا إلى عمله المجهول!

تآكل الفضول رفاقه المأخوذين بتصرفه الغريب! فخططوا لمعرفة سرّ هذا العمل المفاجئ، الذي يخطف صديقهم من بينهم. حتى أمسى يفضلّ القيام بعمله، على اللعب معهم!

وفي أحد الأيام، قرروا تنفيذ مخططهم. فتركوه ينسلّ لعمله المشوّق، واقتفوا أثره كاتمين أنفاسهم بصمت يشتعل في عروقه نهم الفضول.

خطوة.. خطوة.. وإذا بـ«أنيس»، يتجه نحو مقام البلدة،

«بوح حمام»

الذي يغفو بصمت مهيب، في مساحة جليلة وسط القرية. اما عن صاحب المقام، فهو النبي صالح بن يامين بن يعقوب (ع). وهو مقام قلّ من التفت إليه في ذاك الزمن، سوى ثلّة من الشيوخ، أو بعض من الزوار الوافدين من القرى المجاورة...

... ما هذا؟!

إلى أين يتجه «أنيس»؟.. ماذا أصابه؟! .. لماذا يدخل إلى هناك؟..

وحتّطت الدهشة الأصدقاء! فوقفوا لبرهة مدهوشين.. وعقولهم تلهث بالحيرة! فماذا يمكن لفتى لم يتجاوز العاشرة من العمر، أن يفعل في مقام قلّ من يلتفت لوجوده!

تبعوه إلى الداخل، ولسان حالهم يتساءل ما الخبر؟!.. وهناك، كان المشهد الأروع، واللوحة الأجمل!.. لوحة لم تسعفهم عقولهم القاصرة، لإستيعاب مفاهيمها، وخلفياتها القدسية، التي تختصر في خطوطها حكاية مميزة، لمستقبل مميز!

الرفاق، لم يدركوا ما يفعله هذا الفتى الغريب، كغرابة فراشة زاهية، بين حقل من «الشوك».

«غريب.. إنه يصلي!!».. «وما معنى أن يصلّي؟!».. «هه! هل

يقطع اللعب من أجل الصلاة!». تهامسوا باستغراب.. وما عرفوا معنى أن يصلي فتى في مثل عمره! كلّ ما فعلوه، هو انتظاره كي يفرغ من صلاته الهادئة، وبعدها انهالوا عليه مستفسرين:

«هل كنت تصلّي؟!.. لماذا؟ فالصلاة للكبار فقط! «..» ما معنى هذا؟ هل تترك اللعب لكي تصلّي؟! «..» إنّ أمرك لغريب حقّا!! «... يصرّون على أن يفسّر لهم معنى مجيئه الى ذلك المكان .. معنى صلاته؟.. فيجيبهم بلغتهم، إجابة أبقت في داخله سرّ الحكاية، فبرزت بسيطة، تحاكي طفولتهم:

«.. عندما كنت ألعب، ويحين وقت الصلاة، ما كنت أستطيع تجاهلها.. فكنت أحسّ أنه يجب عليّ أن أصلّي.. فآتي الى هنا، أصلّي.. فأطمئن!».

بكلمات عفوية، قصيرة، وبأحاسيس مرهفة بعيدة عن فلسفة متشابكة عبّر أنيس عن حاجة روحية، اسمها الصلاة.. حاجة يكمن في تلافيفها المعنوية، لذّة الطاعة، والإمتثال الفطري، للخالق الأوحد..

... ومن القرية الوادعة.. نحو المدينة أو من المدينة.. نحو القرية!!

من القرية، التي تغفو كأميرة الأساطير، هادئة، جميلة.. تحرس بغفوتها، جمال الخالق تعالى، الذي خصّها بسحر فاتن، وتضمّه بسكون بين مساحاتها الصغيرة... إلى المدينة المزدحمة بمظاهر القبح والجمال على اختلاف أنواعهما. إلى المدينة، وحياتها الصاخبة، المليئة بالتناقضات، وبشتّى المناهج الفكرية، ومختلف التيارات السياسية.

هكذا كانت حياة أنيس!!... تنقّل من هنا الى هناك، كفراشة تحملها النسائم فوق أجنحتها تارة، أو بزوابعها، طورا آخر! على أن هذا التنقّل لم يكن ليؤثّر سلبا على فراشة، كانت تصرّ أن تستقي من كلّ بستان تلتقيه، زهرة، تشاطرها احلام الشذى، وأمانيها الحالمة بقطف نجمة وأكثر!

فأنيس... كنبتة «الصبّار» كان!! لكنه يزدان بالزهر بدلا

من الشوك، أحيانا! وفي أعماقه يتفجر ألف نبع من الصفاء والطهر!

ففي أيّ مناخ، ضعه ولا تخفْ. فبصيرة فطرته، ووعيه المتفتحّ باكرا، كالندى يوقظ الورد ما قبل الشروق! كاف بأن يجعله يتأقلم وبسرعة في أيّ وضع كان!.. فهو يعرف متى يشهر الشوك، ومتى يزدان بالزهر.. فما الشوك سوى سياج لمملكة الروح، وجوهرها الغالي! يحرس جمالها من كلّ، شيطان عنيد، يحاول تجنيد كلّ إمكانياته، المتمثلة بمختلف أنواع المطبات من أصحاب، أو أناس يظهرون بأثواب الملائكة، وهم يخفون كلّ المكر والخبث.

أما الزهر.. فما هو غير هالة جاذبة، تهدي العطر والدفء.. كما الشمس تبزغ على كلّ برّ وفاجر! فأنيس يعرف كيف يتعايش مع الجميع دون أن يؤذي أحداً.. ودون أن يتأثر بمعتقدات أحد! أو حتى أن يتأثر بالخط السياسي لأحدّ! ذلك لأنه كان واعيا وعيا ملفتا، حتى بأمور السياسة وأحوالها، وما ذلك الوعي سوى حصيلة تتبّعه المستمر لكلّ ما يجري في هذا العالم.. ولكأنّ معتقداته.. وخطّه الفكري الأصيل، جبل بأنسجة كيانه، وصقل بمعدن روحه، ما قبل الولادة! فسار على درب السائرين، مشعلا يضيء بالحقّ والهدى!

«بوح حمام»

... لا ادري كم كان عمره، حينما ادخل مدرسة «التربية والتعليم»، في «برج حمّود»، ليستكمل مسيرة العلم الإبتدائية. حيث كان نعم الطالب المجتهد. الذي يتميّز بذكاء مشرق، وسرعة البديهة. فتفوّق منذ ذلك الحين في كلّ المواد، وبدت عليه سمات التميّز، ومقدرة غريبة على خوض النقاشات، والحوارات مهما كان مستواها عاليا!!

ففي إحدى المرّات، وكان عمره يربو على العاشرة. كان خارج المنزل، يلعب أو ما شابه. فإذا به ينخرط ضمن مجموعة من الأساتذة المثقّفين الذين كانوا متحلّقين في مكان ما، قرب منزله، يتناقشون في أمور مختلفة. وإذا به ينبري محاورا إياهم، ومبديا رأيه بكلّ شجاعة، ووضوح. فذهلوا لمنطقه السليم، وقدرته على الخوض في النقاش. وإذا بأحد الأساتذة، يسأله بلهفة تختزن كلّ الإعجاب والتقدير: «إبن من أنت؟».

فأجابه أنيس، بكلّ تهذيب ولباقة: - «إبن أحمد جابر».

- وأين تسكنون؟

- هنا (وأشار الى منزله).

- هل لك يا عزيزي أن تنادي لنا والدتك؟

وبتواضع المطيع، قفز أنيس مناديا والدته التي كانت

منهمكة في غسل الملابس.

- «أماه.. هناك رجال يودّون التحدث اليك».. وخضتها ثقل المفاجأة، وظنت أن ابنها قد ارتكب ما يثير القلق، فهرولت مستعيذة بالله تعالى.. وإذا بالأستاذ يسألها باسما:

- هل أنت متعلمة يا حاجة؟

- لا... خير انشاء الله؟!.. هل حدث مكروه؟

- لا يا حاجة.. كلّ ما في الأمر، أنني كنت ومجموعة من الأساتذة، نتكلم ونتناقش في مواضيع مختلفة، وإذا بولدك، يشاركنا، ويبدع في النقاش والحوار، وقد أدهشنا جميعا فهنيئا لك به، ونسأل المولى أن يحفظه لك!

لم تستغرب الوالدة شهادة الأستاذ بحقّ ولدها، فكم من حادثة مشابهة كانت قد أذهلتها مرارا، وأسرّت في نفسها، ارتعاشا غريبا، لكأنّه مزيج من الفخر والقلق ينبّئها بمستقبل صعب! وكلّ ما فعلته، أنها شردت نحو البعيد باسمة، واقتطفت من سلّة الذكريات ماينعش روحها.. فتذكرت أنيسا وهو ابن الستة أعوام، كيف كان يتسلق أسوار المنزل، ويقف وقفة يكللها الهيبة والوقار، كمن يريد القاء خطاب عتيد! ... وبعد هنيهات يستغلها في تهيئة نفسه، يبدأ بإنشاد شعر،عشقته والدته، عشقا تغلغل في شرايينها، وخالط أنفاس دمائها، حتى صار

«بوح حمام»

يردد مع صوته الصدّاح، كلمات القصيدة الجذلى:

«أحبّ الناس لي أمي

ومن بالروح تفديني

فكم من ليلة قامت

على مهدي، تغطّيني»

إلى آخر القصيدة التي أمست مع الأيام، تسبيحتها المعشوقة.. ومناغاة قلبها، قبل كلّ ليلة.

... كبر أنيس، عاماً يتبعه عام...

وفي كلّ عام حوادث، ونهفات طيبة الوقع.. تشهد له بالتميز الدائم!

كبر أنيس، أنهى دراسته الإبتدائية بتفوق ملحوظ، وإشراقات غريبة، تتراقص فوق ملامحه.. تأسر برقة كل من يلقاه..

.. في البيت، كما في القرية والمدينة، كما في المدرسة، وفي كل مكان! أحبوه كثيرا! وتعلقت به أرواحهم، التي ما فطنت يوما لسرّ هذا الإنشداد الخفيّ والمتين نحوه.

كان غريبا، غريبا بين أبناء جيله، وحتى بين الكبار، وأصحاب الخبرة في التعامل مع هذه الدنيا، وأحوالها المتقلبة.

.. يذكرونه الأهل بينهم، فتى متواضع النفس، عالي

الهمّة.. قوي الشخصية، صلب الإرادة.. قد تشربت روحه الإيمان، حتى تفجرت في خلاياه ينابيع الحكمة لمطيع لكن في ظلّ مرضاة الخالق تعالى. فلطالما ردّد أن: « لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق». فكان يلتفت لصغائر الأمور حتى، حاملا عبء إرضاء الله تعالى، أمانة لا يستهان بها، مقتديا بمولاه أمير المتقين عليه السلام الذي لو أعطي الأقانيم السبع، على أن يعصي الله، في نملة يسلبها جلب شعيرة، لفضل الموت.

... فدم «أنيس» ثورة من العشق كان، يمده بصخب العنفوان، ويوقظ فيه على الدوام، أحاسيسا ملأى بالتحدي، لكل الأقنعة المزيفة.. كان يدرك أن للإنسان عقلا، ما وجد هباء منثورا، وأن للعقل دورا في تحدي مغريات هذه الدنيا الفانية ومعاصيها التي لا تورث سوى الحسرة والندامة. فما العقل سوى أمانة في عنق الإنسان، إما أن يحلق عبره نحو العليين، واما أن يُمسخ بسببه شيطانا مأواه الجحيم.

فكان يلتفت لأمور لطالما ظنها الكثيرون، تافهة لا تستحق عناء الإلتفات والإنتباه. فكم من مرة، نبّه والدته الى أنواع المواد الغذائية التي تشتريها، إبتداء بمنتوجات اللحوم، وصولا الى السمن. فلو حدث وسهت أمه مرة من المرات، وجاءت بسمن مشكوك بكونه حلالا، فإنه يمتنع عن الأكل، حرصا أن

«بوح حمام»

لا يدخل الجسد، ولو لقمة، تدور حولها شبهة الحرام. هذا الى جانب حرصه على الطهارة والنظافة حرصا عجيبا.

أما عن صلاته.. فأمر أخر، وهم أخر. عشيقة روحه، وصومعة تهجداته. ولا تسل، فما أخلاق أنيس سوى انعكاس، يبيّن الصلة الوثيقة ما بين صلاة أنيس، وأخلاقه. فإن صلحت الصلاة، أمسى المرء كتلة نورانية، تتلقى بشغف كل ما هو صالح، وتترجمها بأخلاقيات عالية.. وهكذا كانت صلاة أنيس، لا نهيا عن فحشاء، أو منكر، بل نهيا حتى عن المكروهات.

فلكم شوهد في محراب الليل خاشعا ـ وهو بعد لم يتجاوز الخمسة عشر عاما ـ فوق سجادة صلاته قائما، يبث عشقه العلوي، نافلة في ليل كان حينها لا يستغل سوى للنوم، أو لإضاعة الوقت.

نعم وفي مثل ذلك الزمان.كان يستيقظ في رهبة الليالي، نافضا عنه ثقل لذة النوم.وبقلب يلفظ بكل نبضة تسبيحة حنين،يفرش سجادة صلاته، يهدي للمعشوق نافلة مغلفة بدمع واله، يعفّر جبينه في الأرض التي عشقت سجوده، حتى توّحد مع عطر صعيدها، ويبكي بكاء مريرا، أين منه بكاء الثكالى؟ بكاء ينذرف لسماعه دمع القلب داميا، حائرا؟.

أهذا أنيس ؟.. أحقا هذا هو؟.. أسد النهار الباسل؟

غريب أمر الغرباء كأنيس..

كيف بلحظة ما بين ليلة وضحاها، يتحوّلون من شجعان، أشداء في المواقف الصعبة، إلى فراشة رقيقة متهالكة، تتمسح ذليلة مستأذنة بشغف الوالهين، للعبور ولو جزئيا إلى مملكة العظمة..

فبالأمس أقام أنيس الدنيا، ولم يقعدها.. إلا عندما رضخت إدارة المدرسة، لموقفه البطولي، الشجاع..

ففي مدرسته الثانية، التي انتقل إليها، ليكمل دراسته المتوسطة، والتي لم يكن معلموها وإدارتها، يمتون بصلة إلى الإسلام. كان أنيس يتعلم راضيا، مطبقا قوانين المدرسة، وأنظمتها ما لم تكن تتعارض مع إلتزامه، وعقائده المقدسة. وكان جميع المعلمين والمعلمات، يحبونه ويحترمونه، كونه شخصاً متفوقاً، ومهذباً.

هادئا كان، وهكذا كان يُعرف. لكن حادثة ما، حولت ذاك

«بوح حمام»

الهدوء، الى ثورة، فضحت عمق شخصيته، وما تحتويه من كنوز الثقافة والمعرفة الواعية.

فقد كان له زميلة ملتزمة بالحجاب تشاطره الصف نفسه. وفي إحدى الصباحات التي كادت أن تكون جميلة، كصباحات القصص والروايات. إذا بمعلمة، وبقسوة المتعصبين الذين يحيكون لأنفسهم، شرنقة فولاذية، تأبى الإنفتاح على الأخرين، وتقبّلهَم على مختلف ديانتهم، تقف حاجزا أمام الفتاة، مانعة إياها من دخول الصف، إلا في حال خلعت الحجاب.

الفتاة، لم تستوعب ما قالته المعلمة. ولم تسعفها ثقافتها المتواضعة، إرتباكها المتفاجىء، ورهبة الموقف، في التصدي لمعلمة، كانت تظنها كما كل التلاميذ، القدوة والمثال، للمحبة والأخلاق... وتبرر زلاتها بانها عدم إنتباه...

لكن أنيس، كان يعي كل زلات المعلمين، ويبتلعها بصمت، إحتراما لجهدهم في تعليمه... إلا أن حادثة الحجاب هذه، لم تحتمل سكوته.. فكانت الشعلة التي فجرت فيه ثورة السكوت... فبمجرد أن سمع تهديد المعلمة، إنتفض دم الغيرة في عروقه، وهبّ مدافعا عن الحجاب وقدسيته، بمنطق وأسلوب أذهل المعلمة، وصعق أدلتها، وبراهينها الجوفاء،

الرنانة. فهي لا يحق لها التدخل في الممارسات الدينية للتلاميذ أو عقائدهم. وما الحجاب سوى فريضة كما الصلاة. وليس لها أن تفرض على أحد خلعه... وهكذا، راح أنيس يناقش المعلمة، متحديا كل أدلتها، فاضحا ما تختزنه شخصيتها من خواء.

وبعد نقاش عنيف، أبدى فيه أنيس بطولة وشجاعة في الموقف الذي إتخذه وإبداعا في النقاش الذي خاضه. إضطرّت إدارة المدرسة للتدخل حاسمة الموقف لأصحاب الحق. وبعدها دخلت الفتاة الى الصف معززة، مكرمة، بفضل موقف حق، إتخذه فتى، لم يكن يثنيه عن قول الحق لومة لائم.

.. هكذا راح ينمو «أنيس»...

راهبا في صومعة الليالي، أسدا في النهار... ومواقفه الشجاعة، راحت تتتالى، شامخة تفخر أن منبعها، روح أبت الا أن ترى الله تعالى، في كل خفقة ترنمها. حتى أمست كنورس متهالك، أرهقته السماء بارتفاعها، وأحزنه مشهد الناس، يغرقون في بحر تتقاذفه زوابع الشهوات، وتتعالى من أمواجه رؤوس الشياطين، ساخرة من غباء البشر، حين يؤلّهون هيكل الجسد، مستلذين بسعادة موهومة...

أنيس.. راح ينمو جسديا، عقليا، وروحيا.. يدأب أن يلملم جواهر المعرفة من كل مكان. حاصدا من كل حقل رزمة من سنابل العلم. حتى أمسى دائرة معارف حية. فبرع في فهم السياسة، وتفاصيلها المبطّنة. وصار لديه كم هائل من الثقافة المتنوعة. مما ساهم في ترميم شخصيته، وإبراز معالمها

المشرقة، بوقت مبكر.. حتى صارت تتصدى، وبكل جراة لاي موقف يتطلب، وعيا، وفهما. مهما كان صعبا، دقيقا، وخطرا.

تلك الشخصية، الفذة، التي شرعت تتبلور متألقة مع مرور الزمن، متوجة ببسالة، تشهدها في امتشاقتها الواعدة، جعلت الجميع من حوله، يتيقّنون أن «أنيسا» ليس كغيره.. وان لمستقبله إشراقة، ستحمل في هودجها، خيرا مجهولا. أما والدته، فكانت تخاف أن تتيقن شيئا، يتعلق به أو بمستقبله.

فكلما رأته... رأت الى جانبه طيفا نورانيا، يغرز في أعماقها ارتجاجات من الخوف الممزوج بنكهة الفخر. وكلما همّ بالخروج الى أي مكان، كانت تسارع نحوه، تشيّع طيفه بنظرات، تتمتم أدعية مختلفة.. تحصي خطواته، وفي كل خطوة، نبضة ترافقه مسبّحة، مبتهلة الى من عنده تحفظ الودائع، وتصان الأنفس.... فقد كانت تخاف عليه خوفا غريبا، وتتمنى لو تحيل روحها، درعا يقيه حتى من لفحات النسيم..

فهي تعرف حرارة الثورة التي تسكنه. وتعرف أن لثورته، قاعدة وجذورا عميقة، لا تقوى على اقتلاعها أقوى قوة في العالم.

فحينما كانت ترسم لكل فرد في العائلة، مستقبلا يتناسب

مع شخصيته، وآمالها. كانت تصل الى انيس، تقرأ ملامحه، تحاول أن تتخيل له مستقبلا ما.. لكنها لا تلبث أن يضيع خيالها في زوبعة غامضة المعالم، فعيناه كلما التقتا بعينيها، كانتا تعترفان، بأنه سيبقى مميزا على الدوام...

... وانتقل أنيس الى المرحلة الثانوية، قاطعا بذلك، مسافة شاقة من درب العلم المعبد بالتعب والإرهاق. على أنه كان يعلم أن المرحلة الآتية، ليست بالأقل تعبا من التي مضت. إلا أن إرادته، وسعيه الدائب، في تحصيل المعارف، ساهم الى جانب ذكائه،في المحافظة على تفوقه الذي عرف به من الصغر. فلم يكن يرضى الا أن يكون في طليعة المتفوقين، رغم بدء انشغاله بأمور ثانية.

... فأنيس الذي عاهد نفسه ومنذ البداية، أن يكون المؤمن القوي، الذي يسعى جاهدا للرقيّ والكمال، الى جانب حرصه على خدمة المجتمع، بدأ في تلك المرحلة بتنفيذ، خطوة، خطوة.. كل المشاريع التي كان قد رسمها، لكي يحلق، كما النسر.. باحثا عن القمم الشاهقة.. فيصل نحو أهدافه النورانية، ولو كلف وصوله بذل كل غال ونفيس...

فإلى جانب دراسته الثانوية، واهتمامه الكبير، بمجتمعه وعائلته. لم يتوقف مرة عن تتبع أخبار المسلمين، والإهتمام

بأمور السياسة وتقلباتها الساخنة. هذا عدا عن متابعته الدائمة، لتزويد نفسه بالمعارف الدينية، التي تقوّي فيه الجانب النوراني، وتمد صورته الترابية بجمال روحي آسر. ولكأنّ في الروح عطشا مزمنا، لا يَداويها كثرة المعرفة بل يَزيدها ظمأ.

وحين يُسأل عن درسه، كان يبتسم، فلو شغل بهموم جمّة، فكتابه يبقى خبز يومه، ودراسته تبقى هاجسه الدائم. فالمؤمن المتعلم عنده خير من كثر جاهلين. لأن الإنسان إن أدرك وجود ربه بالفطرة، فبالعلم يعرفه.. يعشقه، ويرى رهبة ملكوته...

فصحيح أن أهله، كانوا يلحظون انشغاله عن درسه، بأمور كثيرة ومتفرعة. لكنه، كان بصمته المعتاد، يطبّق ما رسمه من مخططات، لأحلامه المثلى.. ولهفتها لعناق عرش الكمال الإنساني.

فدراسته، لم تكن يوما غائبة عن ميدان باله، مهما كثرت وتزاحمت انشغالاته، وطموحاته. وهذا ما كانت تؤكده كل نتائج امتحانته. كيف لا وهي أهم الوسائل التي يصل عبرها نحو الهدف المأمول.. بل هي إحدى أسلحة جهاده المتواصل.. ففي ساحاتها الملأى بأنواع البشر، كان كالمغزل الذي لا يكل

ولا يهدأ. يتنقل بين زملائه الطلبة، يغرس الأنس بنبل جماله، ورقة روحه... ويسعى لحبك العلاقات الإجتماعية، بسلاسة، ولباقة.. فيرشد هذا، وينبه ذاك.. ويحثّ كل من يلقى، على الالتزام. لكن بأسلوب رشيق، لطيف. فيفتح أبصارهم، لكي تعي أمورا غائبة عن آفاق بالهم، الغارقة في مفاهيم متضاربة.

تلك كانت ساحة الدراسة عنده، علم وعمل. خدمة لرسالة الاسلام، الذي لا يبغي سوى الخير والسلام لكل البشر.

ولكي يدّعم وسائله، الهادفة الى ايصال جوهر الاسلام، شفافا واضحا، متألقا راح يبحث عن طرق أخرى..

فساهم في مجلة «الحكمة» ومجلة «المنطلق». آملا أن يشعل ولو ومضا خاطفا، من أجل هذا الدين العزيز، الذي لو عمل الناس به، لساد العدل والأمان، وأرخت السعادة أجنحتها الفردوسية فوق هذه المعمورة.

ومضت الأيام بدوراتها.. وأتى العام الحاسم..

آخر سنة، ويتحدد المصير.. إما رسوبا محبطا.. وإما دخولا مشرفا الى الجامعة، وحرمها المزدان بالأماني.. على أن دخولها، ليس بالسهل ابدا.. فالإمتحانات الرسمية، بالمرصاد وجسورها المغروزة بالأشواك، تنتظر الطلاب الحالمين.

وانيس الذي كان يُتوقع منه، ان يغرق في فوضى القلق، وعجقة التحضيرات، بقي هادئا على حاله. محافظا على كل أعماله، ونشاطاته، التي برمجها بدقة حاذق في خلايا دماغه. أما أهله، فكانوا يراقبونه، وجمر الخوف، يتآكلهم بسكون محترق.. كانوا يريدونه راهبا في صومعة دروسه، وأن لا تشغله نسمة عن درسه، وامتحاناته. فنجاحه، نجاحهم. وفشله ضربة، تسقط آمالهم، وتنسفها نسفا.

لكن «أنيس»، الغارق في مسؤليات مختلفة، لم يتغافل عن قلق الأهل، وحرصهم البالغ على نجاحه. فأبى الا أن تكون تلك السنة، تحفة النجاح. وبهدوء المجتهدين الكادحين، قدمها إكليل فخر، لأهله الأوفياء.

وجاءت نتائج الامتحانات، تفوقا باهرا، استحق عليه كل تنويه، وتقدير. ومن دون أن يسعى، أو حتى يطالب، فإن تميّزه الملفت، أتاح له فرصة، يتزاحم عليها الكثيرين من الشباب. حيث حصل على منحة، للسفر والدراسة في الخارج.

لكن حكمته التي كانت تنظر الى ما هو أبعد وأروع من الدراسة، خارجا، في بلاد مقيدة بالمغريات.. رفضت المنحة، مفضّلة البقاء في الوطن. لا خوفا من غربة، وعذاب.. بل خوفا من التأخر خطوات عن الحلم العزيز.. والهدف السامي.

«بوح حمام»

فاي قرار غير محكم انذاك، كان ليكلفه عمرا اخر، في بناء نفسه. لذلك فقد آثر، الإلتحاق بالجامعة اللبنانية، منتسبا إلى كلية العلوم، وكلية الحقوق، في عام واحد.

وقد كان دخوله إلى الجامعة عام ١٩٧٧، بداية مشوار آخر. فتشعبّت نشاطاته، واتخذت طابعا أوسع، وأبعادا أعمق، وأشمل. خاصة في تلك الحقبة، التي كان العالم الإسلامي، وقتها يُوقظ من سبات العار، بإرادة رجل رباني، يتدفق في عروقه نور الصالحين، نازفا بثار الحسين... ألا وهو الإمام الخميني قدس سره...

ذلك الإمام الذي طلع كحلم أسطوري، فزلزل الأرض، تحت أقدام الطغاة، .. وعلّم الأجيال، كيف يكون الإسلام، دستور الحياة ومنهجها.. وكيف تكون الروح ثمن الكرامة، والإتكال على الرحمن، مصدر القوة.

ومن الأحداث المتسارعة التي كانت تحصل في إيران، وترمي أصداءها على أجواء لبنان، ساكبة الطمأنينة والعزة في قلوب المؤمنين. إستمد أنيس، الطاقة، ليكمل دربه بمزيد من الحماس، والقوة.

فانخرط في صفوف «إتحاد الطلبة المسلمين»، وشرع يبثّ الوعي، واليقظة، بين أبناء جيله، منبها إياهم، على مخططات

المستكبرين الإستعمارية، وأساليبهم الشيطانية للإيقاع بالشعوب المستضعفة...

فكان من المؤسسين الأوائل للحركة الإسلامية الناشطة، الهادفة الى نشر الوعي، بالنهج المحمدي الأصيل، المتمثّل بنهج الإمام الخميني قدس سره.

... بعد ذلك، صار مندوبا لمجلتي «الحكمة» و«المنطلق».. الأمر الذي أتاح له فرصة التواصل مع إيران «بلد الثورة»...

لكن تفرّع نشاطاته الثقافية، لم تنسه واجباته الإجتماعية، ومتابعته لهموم الناس. ولو بدعاء حميم، يرفعه بكلّ ما في القلب من حرقة، على مشهد إنسان يتعذّب.

ففي عام ١٩٧٨، حين حصل الإجتياح الإسرائيلي... اضطر الكثيرون من الأهالي للنزوح الى بيروت. وكان نصيب «الدكوانة» حيث كان يسكن أنيس وافرا من نزوح المهجّرين. فلم يجدوا مكانا يلتجئون اليه، سوى أكفّ الطرقات المغسولة بالنكبات، فافترشوها سائلين المولى اللطف والرحمة.

فلم يستطع أنيس، وهو الذي ربّا في قلبه ضياء الرحمة، حتى غمر كيانه، أن يحتمل مشهد الأطفال، النساء وحتى الرجال... وهم في حالة البؤس تلك.

فهبّ مسارعا، والهموم تنقر نوافذ أفكاره المتضاربة... علّه

«بوح حمام»

يستطيع ان يؤمّن لهم ولو مساعدة بسيطة، تخفف عنهم، جزءا يسيرا من ألم المأساة والغربة.

فتوجه الى منزله، عله يجد ما يساهم في حملة المساعدة... وصادف أن كانت والدته، قد جمّعت،وبألف يا ويلتاه، مجموعة من الأغطية.. كما يجمّع العصفور قشة، قشة، لبناء عشه. إلى أن وصل عددها الى العشرة، تكفي العائلة، وتحميها من اجتياحات البرد، الذي لا يرحم...

وإذا بأنيس، يأتي وببرودة المطمئنّين الى رعاية المولى، يأخذ خمسة أغطية الأمر الذي لم يعجب الوالدة، وإذا بها تثور ثائرتها.. فتصدت له قائلة:

«يا حبيب أمك.. قد هلكت، لكي أحصل على هذه الأغطية، وبعد جهد جهيد حتى جمعتها... وببرودة هكذا... ستهبها.. ونحن ماذا سيتبقى لنا؟؟».

فأجابها بلطف، وادع:

«.. أماه قد بقي لنا من هذه الأغطية خمسة.. لكن هناك عائلات لا تملك منها واحداً.. وزوجك موظف، باستطاعته في آخر الشهر أن يشتري لنا ما نحتاجه».

وأكمل طريقه، ليمسح فوق رؤوس المهجّرين بدفء حنانه، ويعلم أهله دون كلام ومواعظ، كيف يكون الايثار، اجمل

عطاء...

... في إيران.. كانت الأحداث، تتسارع، وسفينة الثورة، كانت تُقاد بكل حكمة، نحو شواطىء النصر، والثبات.

ففي السابع من أيلول الـ١٩٧٨، قامت الجماهير المليونية في طهران بالنزول الى الشوارع بعد صلاة عيد الفطر، ودعت الجيش للإلتحاق بصفوف الشعب، مرددة: «أفراد الجيش أخوتنا والخميني قائدنا»

وعند انتهاء المظاهرات المليونية، كان الناس يهتفون: «غدا صباحا، ميدان الشهداء». وهكذا تقرر أن يكون اليوم التالي، يوما للتظاهر ضد الشاه في ميدان الشهداء.

وعند الساعة السادسة صباحا، أعلنت الإذاعة، عن إقامة الحكومة العسكرية في طهران وفي سائر المحافظات الكبرى، في إيران، ومنع تجمع أكثر من ٣ أشخاص.

لكن الناس لم يبالو بالقرارات، ولا بالدبابات المتغطرسة. فنزلوا الى الشوارع، بأيد عزلاء، إلا من الإيمان. حيث تعرضوا لإطلاق النار الغادر، من جميع الجهات، وسقط العديد منهم ما بين قتيل، وجريح، رافعا دمه راية كرامة، شامخة...

وفي ذلك اليوم الذي سميّ بالجمعة السوداء، هاجت في وجدان الشعب ذكريات آلاف الشهداء، والتحمت ثورته،

بقراره الصارم، القاضي بزلزلة نظام الشاه، ومتابعة درب الثورة، التي أذنت بمغيب فقاعة النظام الفاسد.

وقد خاطب الإمام الخميني، شعبه، ذاك اليوم قائلاً:

«ليت الخميني كان بينكم، والى جانبكم ليُقتل في جبهة الدفاع، في سبيل الله».

وفي الوقت الذي، كان الشاه، ومخابراته، وزعماء أمريكا، يحرّضون الجيش على قمع الشعب، كان الإمام، يعلّم شعبه درسا بالغا في الجهاد ويمدّهم، بالخطابات الحكيمة، المفعمة بالعواطف الصادقة، والإيمان الخالص.

ومن جملة ما كان يردده آنذاك: «يا شعب إيران، كن على ثقة بأن النصر سيكون حليفك، عاجلا أم آجلا».

كان الشاه، يسعى لاهثا، وكمن سبقه من الساذجين المستكبرين، للبقاء في السلطة، من خلال خداع الشعب، بتغيير الوزراء، ورؤسائهم.

وحينما رأى أن الإمام الخميني، دائما له بالمرصاد، كفيض من النور يمدّ الشعب بالوعي، واليقظة، ولا تنطلي عليه خدع من تلبسته شياطين الغرب، بدأ بالتباحث مع النظام العراقي، لأجل الحدّ من حركة الإمام، ومنعه من التدخل في الأمور السياسية، أو إخراجه إلى بلد آخر، غير العراق.

وبالفعل، فقد استطاع الشاه، أن يحصل على ما يريد، بعد أن ناصره أعداء الحق. واضطر الإمام للسفر، الى فرنسا، بعدما منع من دخول الكويت.

الإمام قدس سره لم يهمه الترحيل، ولا وقوف العالم بأسره ضده، بل كان يقول: «بالنسبة لي لا معنى للمكان، المهم أن أؤدي تكليفي».

ولكن الله تعالى، وبنفي الإمام قدس سره، ردّ كيدهم إلى نحرهم. فقد استطاع الإمام، ومن مقر إقامته في تلك القرية الواقعة في إحدى ضواحي باريس، أن يوصل صوت الثورة إلى كل العالم.

وعندها عمّت الإضرابات كافة المناطق والمؤسسات الإيرانية، والأسواق والمصانع و.... الأمر الذي سلب النوم من أعين الشاه وأعوانه.

ولم تجد الأحكام العرفية، ولا الأوامر العسكرية لهم نفعا. فبيانات الإمام التي كانت تصدر يوميا، كانت تشخص بأبصارهم، وتريهم ملكوت الله تعالى، ووعده الصادق بالنصر القريب، مهما طال ليل الظلمة. وكانت البيانات توزع بسرعة، حيّرت العالم، وفي كافة المناطق الإيرانية.

ومع بداية العام الدراسي، تحوّلت المدارس، والجامعات

إلى ساحات للرفض، والثورة. وسُطرت اروع الملاحم بدماء الطلاب الزاكية.

كانت إيران تشتعل بكافة مناطقها، وأهلهاعلى اختلاف طبقاتهم، وتغلي بغضب الشعب العارم، حتى كأنك تحسب السماء والأرض، إتحدتا على نداء: «الموت للشاه» وحتى الأثير توّحد والحق، ناقلا عبر أسلاك ذبذباته، أمواج هذا النداء إلى كل بقعة في إيران، حتى جرى في عروق الصغار، والكبار، نساء ورجالا، واستحال إلى سيل جارف، وبركان هادر.

ورغم أساليب الشاه، وأفخاخه الدبلوماسية؛ كإطلاق سراح المعتقلين السياسيين؛ إلا ان الإمام قدس سره، فضحه، وكشف كل ألاعيبه، معلنا أن الحلّ الوحيد، هو إخراج الشاه، والمستشارين الأمريكان.

وفي السادس عشر من ك٢، فرّ الشاه بجلده، قبل أن يصل إليه عقاب الشعب، والتحق باسياده الأمريكان، يتمسّح باذيالهم، طالبا بركاتهم الفاسدة.

وفي هذه المناسبة أصدر الإمام بيانا قال فيه:

«وإن كان هذا الظالم قد فرّ من أيدينا، بيد ملطخة بدم شبابنا، وجيب مليء بذخائر وثروات هذا الشعب، ولكن قطع

يد الظالم هو انتصار بحد ذاته».

... وبعد هزيمة الشاه، أوعز الأمريكيون، الى «بختيار» أن يشكل حكومة ذات توجه قومي، باستعمال الخداع والإرهاب، لإخماد الثورة.

وهنا قرر الإمام قدس سره، مباشرة، العودة الى إيران، ليقود الثورة عن قرب.

وإذا كانت أمريكا تريد القضاء على الشعب، فهو يريد أن يكون إلى جانب شعبه العظيم. ولكن «بختيار» هدّد بإغلاق جميع المطارات، بوجه الإمام، مهددا بتفجير الطائرة...

لكن الإمام أصرّ على العودة، رغم كل التهديدات الصارمة... وعاد بظلّ عناية الله تعالى، ولطفه الذي شمل شعب إيران، والمسلمين، ومنّ عليهم بنجاة الإمام وعودته سالما، عزيزا الى وطنه...

... في الجانب الآخر. وفي لبنان تحديدا...

كان يعيش أنيس، متعقبًا كل أخبار الثورة، وتفاصيلها... يدعو لتوفيقها بكل ما في الروح من حرارة دامعة، وروحانية هائمة.

وفي نفسه، هاجس، يطالعه هائجا من زوايا الفكر، ومتاهاته... وفي مهجته حلم يجنح بخيالاته إلى فضاء التقاة، الحالمين.. حيث لكل أمنية، نجمة تنثر في وجدانه أجمل الرؤى.. واحلاها..

.. ففي الليالي، ولا تسل عن لياليه..

مملكة من سكون، وتهجد... وفرط من خشوع وحنين..

ونور.. من صومعة القلب، يتسلل إلى أنحاء كيانه بهوادة، فيختلج وجهه بندى الصبا، وعناد الشباب...

.. قلقا.. وحيدا.. كان يسهرها...

يذبح لهدوئها الغارق بعتمة جليلة، دموعه.. يرفعها مع

إبتهالاته، أدعية تزفر بالأمنيات..

أمنية واحدة...

وحيدة هي.. تختبئ في سجن الجسد، عصفورة، يراودها أمل الحرية..

أمنية.. غالية.. هي..

تحمل في صمتها المحترق، شرود عينيه، وصمت شفتيه ذات الإبتسامة المحببة..

لا يريد أن يحيا.. ليموت كما كلّ البشر.. لا..

ولا يريد لهذه الروح ان يكبّلها قيد الجسد، ويشدها نحو وحول الأرض، فيمنعها من التحليق..

لا يريد لهذا النابض في صدره، أن يبقى أجوفَ، كمغارة ظلماء، تنعق فيها غربان الملذات العمياء.. وتسكنها عتمة الجهل، واللامبالاة...

فأمنيته، أدركت تفاهة الحياة حينما تكون مقتصرة، على متطلبات الجسد النهمة... والجسد حينما لا يهذّب، يصبح وحشا كاسرا، لا تشبع غرائزه.. اما الروح، فطيرٌ فردوسيُّ الوجود، دائم البحث عن نقطة نور، يمتص ما فيها من عناصر حياة حقيقية.. الجسد لا يتوسّد سوى الأوهام الأرضية، والروح تتوق للعلا...

«بوح حمام»

وانيس، كان يرى في ساحات الجهاد التي فتحت للإيرانيين، الطافا إلهية، توصلهم الى ذلك العلا المنشود.. لذلك كان كلما سمع بشهيد سقط، تمنى لو كان مكانه..

في هذه الأثناء، لم يكن قد تبقّى للثورة الإسلامية في إيران،سوى خطوات لتقطف ثمرة النصر يانعة.. فالإمام الخميني قدس سره، الذي قرر العودة الى وطنه العزيز، والذي كان في إستقباله الملايين من العاشقين، المستضعفين. وطأت قدماه، أرض إيران الحبيبة، في الأول من شباط عام ١٩٧٩م.. بعد ١٥ عاما دام في المنفى، قضاها ثائرا، مجاهدا... وتحوّل مشهد الملايين التي جاءت لإستقباله إلى بحر هائج، تتطاير أمواج خفقه شوقا، وتوقا للقيا من حرّر أمة بأكملها.. للقيا حفيد محيي الإسلام، الحسين عليه السلام.. وسليل الأطهار..

الإمام العزيز.. الذي وصل الى وطنه، مكللا بالعزة، والفخر.. لم يتوجه بعد نزوله من الطائرة، الى قصر الشاه المخلوع، كما يفعل، عادة، قادة الثورات في العالم.. بل فكره المجبول بتقدير الشعب، وقلبه المعجون بحبهم، قاداه الى روضة الشهداء.. وهناك أعلن، بصوت، تردد صداه، بعيداً، كاسرا صدأ الغربة.. نافضا غبار العار عن قافلة من قرون

مضت تحت نير العبودية، قائلا:

«إنني، وبدعم من هذا الشعب، اعيّن الحكومة، إنني سأضرب هذه الحكومة - حكومة بختيار - على فمها.. إنني أعين الحكومة».

وهكذا، أضحى الإمام، بين أمته، يقود الثورة نحو الحكومة الإسلامية الصلد.

وفي الثالث من شباط، أمر الإمام المهندس «بازركان» بتشكيل حكومة مؤقتة. وفي الثامن منه، قامت مجموعة من القوات الجوية، بمبايعة الإمام،وفي العاشر من الشهر المذكور، قررالعسكريون التابعون لأمريكا، أن يقضواعلى الثورة، من خلال قتل عدّة ملايين من الشعب، فأعلنو الأحكام العرفية، بدءا من الساعة الرابعة ظهرا.

فأصدر الإمام بيانا قال فيه: «إن إعلان الاحكام العرفية، اليوم خدعة، وهو خلاف للشرع.. وعلى الشعب أن لا يبالي بها بأي شكل».

وهكذا أمر الإمام كل الشعب بالنزول إلى الشارع في الوقت المحدد، لقيام الأحكام العرفية، وأن لا يدعوا الدبابات تخرج من المعسكرات.

والعجيب، أنه لم يبق أحد من أفراد الشعب في منزله، حتى

العجوز المقعد فقد كانوا يحملونه، وينزلونه الى الشارع.

وبعد عدة ساعات من الإشتباكات الليليّة، التي استمرت الى الصباح، سقطت جميع المعسكرات، والإذاعة، والتلفزيون، وجميع مراكز الدولة، بأيدي الثوار.

وانبلج فجر الحادي عشر من شباط، ليعلن انتصار الثورة الإسلامية، ثورة المستضعفين، بعد أيام طويلة، وعصيبة من الجهاد والكفاح، كلفّت الآلاف من الشهداء، والجرحى.

وهناك أعلن الإمام الخميني، بحنجرته الملكوتية:

«الهي أنت الذي مننت علينا، ونصرتنا في هذا اليوم على أعدائك وأخذت بيد هذا الشعب المظلوم، وانتشلته بعنايتك من لجة السقوط، وجهنم العالمين وأوصلته الى القمة».

وهكذا كان انتصار الثورة في ايران. وعلى الرغم من ان هذا النصر العزيز لم يكن النهاية، بل نقطة البداية، إلا ان فرحة النصر، حلقت، ناثرة فوق كل القلوب، روعة بشرها... والحبور زغرد، ماسحا عن الأرواح المحزونة، كل ما تراكم من أحزان، أحزان ، ليمدها بأمل جديد، وحلم جديد، تُعانق رؤاه وعد السماء..

على أن هذه الفرحة، لم تكن مقتصرة على إيران، وشعبها

فقط.. فالمؤمنون في كل مكان، فرحوا، لنصر اراده الله تعالى شعلة أمل، تخفق فرحا في أرواح المستضفين في كل العالم.

وفي لبنان، لم تغب أجواء الفرح، عن الثلة، التي كانت مدركة، وواعية لأبعاد الثورة الإسلامية في إيران.. ومدى أهميتها.

وأنيس، واحد من الذين غمرت فرحة النصر، مهجته الموعودة، بحلم عزيز، فكان يوم انتصار الثورة الإسلامية، يوما مميزا.. أشعل في نفسه الحماس، والإندفاع، وصبّ في أوردته حيوية غامرة.. فانبرى يخطب في مسجد الشياح مستثيرا عقول الشباب، وعواطفهم، ومحفّزا إياهم، على الإرتشاف من معين الثورة، ومفاهيمها الراقية. شارحا لهم أهدافها، وشمولية أبعادها، المقتدية بنهج الحسين عليه السلام... خطابُه الذي كان ثمرة الفرح الذي غمره، وعلى الرغم من أنّه جاء مرتجلا، نابعا عن عفو خاطر، ألهبته المشاعر الإنسانية الراقية، إلا أنه كان بغاية الروعة، والغنى، والتأثير... لذلك فهو لم يعجب بعض الجماعات التي كانت ناشطة، آنذاك، والتي كانت ترى بأن الأفضل، أن يبقى الشباب، غارقين في عتمة الجهل.. وأن التعتيم على الثورة، وإنجازاتها، هو الأحسن لمصلحتها.. وسرعان ما راحت تصدر التهديدات،

«بوح حمام»

بحقّ انيس، فوُضع إسمه على الحواجز... إلا ان انيس لم يأبه، بل بقي كالطود الشامخ، الذي لا تهمه عربدة الرياح، مهما عتت، وتجبّرت.

ومن النكات اللطيفة ، التي حصلت مع أنيس، يوم انتصار الثورة الإسلامية أن والده، كان قد لاحظ، أن ثياب ولده العزيز، والتي اعتاد على ارتدائها، والمحافظة على حسنها وترتيبها قد أمست شبه بالية.. فناداه، واعطاه مبلغا من المال، ليشتري به ثيابا مختلفة.

ومرّ الأسبوع الأول، فالثاني، ثمّ الثالث.. وأنيس يرتدي الثياب نفسها. فلم يحتمل الوالد، وهو الذي، يعمل ويكدح من أجل أولاده، وإسعادهم.. أن يرى ابنه على هذه الحالة.. فناداه، وسأله عن المبلغ الذي أعطاه إياه، لكي يشتري به ثيابا.. وإذا بأنيس يصمت ، مبتسما.. بالغًا الأجوبة..

ألّح الوالد على معرفة مصير المبلغ، وإذا بأنيس يعترف بالحقيقة...

فالمال.. قد تصدّق به لحظة الإعلان عن إنتصار الثورة الإسلامية.. وذهل الوالد.. لم فعلت هذا يا بني؟... فالتصدق ليس واجبا..

وبلطفه المعهود، أجاب والده الدهوش:

إني، نذرت لله تعالى، إذا ما انتصرت الثورة، بقيادة الإمام الخميني (حفظه الله) أن أتصدق، بكامل المبلغ الذي يكون معي، يوم الإنتصار. وهاأنا قد وفيت بنذري، يا والدي..

لم يفعل الوالد المأخوذ بشخصية ولده، سوى أن أخرج من جيبه مبلغا آخر، ودفعه إلى أنيس، متمنيا عليه، أن يهتم بنفسه هذه المرة، ويشتري لها ما تحتاجه.

وكان القرار...

... وبالعودة إلى أنيس، ودراسته.. فإنه بعد أن كان قد درس في الجامعة اللبنانية لسنتين، وانهى فصولها بنجاح باهر، كما الحال دوما، كان أنيس قد إتخذ قرارا حاسما بالسفر..

لكن السفر الذي كان أمنية الأهل، وحلمهم... تغيّرت وجهته، هذه المرة، فشراع الطموح في سفينة نفسه، كان يرنو نحو أرض العشق، والثورة.. نحو بلاد، كان لا يزال ترابها رطبا، مخضلّا بندى الدماء الزكية، وهواؤها، كان لا يزال دافىء الصدى، موشى بأنفاس الخميني الطاهرة، وذبذبات روحه الوالهة... المقدّسة...

نعم فالسفر،هذه المرّة لم يكن سوي خطوة، في درب تحقيق الحلم والمشروع... سفر أراده أنيس، هجرة، يهب من خلالها، روحه، جسده، وعلمه، للخالق الأوحد، ومعشوقه الأحد.. فكان

القرار حاسما، لا نقاش فيه:

- «سوف أسافر إلى إيران»...

- «ماذا؟... تسافر إلى أين؟... ألا ترى خطورة الوضع؟.. ثم ماذا ستفعل هناك؟...».

- «.. أدرس العلوم الدينية..».

وانهمرت عليه الإستفهامات المعارضة.. والتعليقات المتسائلة..

لكن.. حينما يكون القرار بحجم الحلم، فمن المحال أن تثنيه توسّلات العاطفة في رمشة أمّ تواري دمعة قفزت على حين غفلة، أو في عبسة أبّ، يسعى بكلّ ما أوتي من سلطان الأبوة، أن يمنع فلذة كبده، عن قرار أخافه، حدّ السهاد.

... وسافر أنيس.

كما تسافر السنونوات، مخبّئة بين أجنحتها، عطر التراب الوطنيّ، ونكهة أعشابه الخضراء.. حاملة في حناياها سحر الدفء، الذي قطفته من صعيد أرض حنون.. ذات صباح ربيعي القسمات..

سافر، وبين ضلوعه.. صورة عائلته الحبيبة، قد غسّلهابدمع الروح في الخفاء، وأخفى معالمها المتوهجة بالحنين، طوعا، ليرسم بمشاعره الشفافة صورة أبهى، لحبّ

«بوح حمام»

أعمق، وأشمل.. حبّ تتجلى خطوطه الفردوسية، في صورة دينه... العزيز...

.. سافر، ولسان روحه، يردد والها: «إني مهاجر إلى ربي...» وفي مهجته، دمعة حلمها الهطول في حضن عملاق ذاك الزمان...

وفي إيران إكتملت المسيرة، وزاد المشوار تعبا. ولذّة.. ذلك أن الذي، يهب نفسه بكلّ جوارحها، وأنفاسها، للمعشوق الأوحد، لا يزيده التعب والإنهاك، إلا فرحا، وسرورا... وأنيس لم يزده السفر، سوى حركة، ونشاط واجتهاد في تحصيل العلم، حيث دخل الحوزة ملهوفا، آملا أن يرقى إلى أعلى المقامات المعنوية...

وعلى الرغم من دراسته الحوزوية، إلا أنه لم يكفّ، عن نشاطاته المتنوعة، بل صار يعمل على جبهتين، جاعلا من نفسه جسر تواصل، ما بين إيران ولبنان. فراح يكمل ما كان قد بدأه في لبنان من توعية ثقافية إسلامية، وراح يبعث بالكتب الدينية والسياسية، مشددا على إرسال كتب للشهيد مطهري قدس سره ناشدا بذلك، بثّ الوعي والثقافة، بين أبناء جيله.

وفي هذه الفترة، الممتدة ما بين عام ١٩٧٩ الى العام ١٩٨١،

كانت إيران تمرّ في مرحلة حسّاسة، وحرجة.. ذلك ان الحفاظ على النصر، وخاصة في ظلّ وجود الخونة العملاء، أصعب من تحقيق النصر نفسه.

فالعدو كان يتربّص شرّا، مجنّدا لإسقاط الثورة، كل الوسائل المتاحة. وكانت أمريكا، وحلفاؤها، تعدّ المخططات بالإشتراك مع المنافقين، للنيل من الثورة، ونصرها الساحق.

.. ولكن هيهات.. فالعناية الإلهية، وحكمة الإمام الخميني الثاقبة، كانتا تحرسان الثورة، وشعبها.

وفي الوقت الذي كان الإمام يسعى جاهدا لتشكيل جميع المراكز القانونية للدولة. تتالت الإضطرابات، في بعض المحافظات، بواسطة المنافقين، والمضلّين، الذين تحرّكوا للإنفصال عن الدولة الأم.

ولكن حكمة الإمام، وحضور أمة حزب الله في تلك المناطق.. وبتدخل من قوّات الحرس الثوري، تمّ القضاء على جميع هذه التحرّكات العميلة.

... هكذا كانت إيران... ساحة جهاد، تضجّ بالمؤامرات. والبلاءات العصيبة.

وأنيس لم يكن بعيدا،عن هذه الأجواء. بل على العكس، فقد كان يواكب الأحداث، لحظة بلحظة، وكأنه واحد من أبناء

«بوح حمام»

إيران المقرّبين. مطبّقا توجيهات الإمام الخميني، بحذافيرها، خاصة تلك التي كان يصدرها لطلاب الحوزة، حيث كان يدعوهم للتحرّك، باتجاه النضج والتكامل الفكري، وأن يبيّنوا واقع الإسلام المظلوم، ويشرحوا مبادئه السلسة. ويعرّفوا شعوب الدنيا على أنفسهم، إسلامهم، وحكومتهم الإسلامية. فالإمام كان يعوّل كثيرا على فئة الشباب، خصوصا على طلاب الجامعات، والحوزويين...

وأنيس كان منهم..

ذائبا في شخصية الإمام الخميني قدس سره، ومبادئه العظيمة.. لا عشقا أعمى بل عشقا، قد أدرك عمق تلك الشخصية التي تختزن في فكرها، نور الأئمة، وهداهم، حتى أمست تطبيقا عمليا لرسالة الإسلام..

اللقاء..

نعم.. فمن عرف «الخميني»... عشقَه...

ومحال لمن يملك فكرا خاليا من شوائب التعصب، أن لا يعشق إنسانا، برهن ومن خلال أعماله على رُقيّه الإنساني.. وشخصه الربّاني العظيم..

.. رجل قد حيّر عقول الأقلام، حتى غارت في دماء مدادها ذاهلة...

.. أنيس.. أو الشيخ «أنيس»..

ليس الوحيد... الذي هام حبّا بالخميني..

بل الملايين عشقته، عشقا.. لا يقدر أي كلام، احتواء عمقه، وحرارته... لأن الروح، حين تعشق، تصبح بحجم الكون، ووسعه.. فتصغر الكلمات حييّة، قاصرة عن التعبير..

وعشق أنيس.. للإمام الحبيب..

أقلقه ليال طوال.. طوال.. فهام ناشدا، ولو نظرة من قدس

«بوح حمام»

عينيه الغاليتين.

.. قُبلة يغرسها فوق طهر كفيه، فترفرف مرنّمة بما يحمله الفؤاد، من ثقل الهوى..

أواه.. على حبّه..

كم ذا همّمه.. أضناه بعذاب عذب.. دافىء الدموع..

فلم يستطع إلا أن يطلب لقياه، ولو لثوان، تحيي طير روحه، فينطلق من جديد، بعزم أقوى ..

... وفي إحدى الأيام..

حيث كان المطر يتناثر، كنجوم فضيّة .. ترنّم تواشيحا ثلجية الأنفاس.. رقيقة الإيقاعات.. والسماء تلتفّ بشال من السحب الرمادية...

حثّ الخطى.. قاصدا منزل الإمام المتواضع.. وصل الى هناك ملهوفا، وباندفاع العاشقين.. أراد أن يدخل،علّه يحظى بلقاء عزيز.. وإذا بأحد رجال الحرس الثوري، يمنعه، سائلا إياه عن مقصده.. وببراءة الهائم الواله، أجابه أنيس دامي الفؤاد: «جئت أرى الإمام..».

لكن الإمام، ذاك الوقت، كان منغمسا في قضايا الثورة، ومشاكلها.. ولأنه الحبيب الذي يُخاف عليه أكثر من الروح، فإن الرجل ردّ أنيسا، معاتبا إياه، فالإمام كثير الإنشغال، وليس بمقدرته رؤية كلّ من يأتي للقائه الشريف، خاصة أن المحبّين كثر...

«بوح حمام»

لكن الرجل، لم يدرك ان انيس، نوع اخر من المحبين، النادرين...

فهو لم يرض أن يعود، وفي نفسه خيبة مفجوعة.. فرؤية الإمام عنده، تساوي رؤية الجنّة... لذلك فقد اتخذ قرارا بأن لا يبارح ذاك المكان إلا بعد أن يحظى برؤيته المباركة... فجلس الى جانب باب المنزل، ولأن المطر كان يهطل بغزارة، فإنه، غطّى نفسه، بمعطف كان يرتديه. وبقي هناك ثلاثة أيام متتالية، لم يكن يغادره إلا للصلاة، ثمّ يعود الى وضعيته...

الى أن لاحظ مداومته أحد المسؤولين، فدخل الى الإمام، وحكى له قصة هذا الشاب.. فطلب الإمام دخوله على الفور..

... لا أدري ما كان ردّ «أنيس»..

وليس من الممكن أن أدري..

ولا حتى أن أحوي بكلماتي المتواضعة، تسَارع النبض في أوردة جوارحه.. أو ما كانت تهمس له خطواته، وهي تتعثر بشوقه الغزير.. تحثّها اللهفة على الإسراع في المسير...

... وكانت لحظة اللقاء..

سابقت روحه خطاه...

وهل كانت الدنيا، لتحتوي فرحة بوسع كواكب السماء؟...

.. ملهوفا.. مدمّى بالوجد.. ونزف الحنين..

يا الله.. «يا حبيبي يا خميني»..

نصف ساعة من البكاء... تختصر مسيرة الشوق وحكاية الحبّ العميق...

... إيه يا إمام ما أقدسك.. يا سلوانا في هذا الزمن المرّ..

وعبرات أنيس تبوح بما يحويه الوجدان من تعابير عشق تائهة المعاني... والإمام ينظر اليه برأفة الأبّ، يمسح بكفّيه الحنونتين، على رأسه الحاني بخشوع كأنه في حضرة قدّيس. والإمام يحثّه، أن قم بني أبكَ خطبٌ ما، ألديك طلب نستطيع، أن نلبّيه لك.. فتقرّ عينا .. بنيّ قلّ، وفي خدمتك نحن..

ويستمر بكاؤه؛ اللغة الوحيدة؛ في زحام المشاعر، وانكسار العبارات التي لا تتسع لوسع الروح، ومفرداتها... الولهانة..

وبغصّات قد بحّها رفيف الهوى، تلّفظ بمبتغاه:

«مولاي... الشهادة... كلّ ماأريده.. إدعُ لي بالشهادة...».

وإذا بالإمام، يرفعه إليه، داعيا له بالشهادة. حلمه العزيز .... أنيس لكم يُغبط ذاك الدمع.. ذرفته حييًّا بين يدي ذاك العظيم...

بالله ما كان بوحه؟.. ما كان يهمس، وحرارة القلب تشعله

بانواع اللواعج..

في أيّ فردوس كنت يا أنيس؟.. وفي أيّ جنة من عليين، لحظة ذاك اللقاء؟

أنيس.. كُثر، غيرك، قد حلموا طويلا بتلويحة.. لا بلقاء..

ولكن هيهات..

فبوركت فيك إرادة الحلم.. وطموح الأمنية..

... بعد هذا اللقاء العزيز..

الذي شكّل مرحلة مهمّة في حياة أنيس.. عاد إلى نشاطه، وكأنه وليد، قد بُعث من جديد.. وفي كيانه شمس تمدّه بطاقة هائلة..

عاد إلى حوزته.. وفي حوزته، نجوم من الأمل، تغمره بانشراح دافىء.. وسَمعُ قلبه مملوء بصدى الخميني، وهو يتمتم دعاءه المبارك..

قد كانت الدنيا سجنه في الماضي، بلى.. ولكن أمست الآن، سجنا جميلا، أكثر رونقا، لأنها ميدان جهاد وعمل، ومحراب يسفح فيه طاعته، قربانا لله... لله... ما أروعك يا دنيا..

حينما تصبحين.. مسجدَ العباد المؤمنين.. ووردة عمرهم المروّضة بإشعاعات إرادتهم الإيمانية...

وهكذا كانت الدنيا لأنيس.. فلم تكن صعوباتها، وبلاءاتها الغزيرة، سوى نفحات، يحسبها هدايا من الباري.. ليزداد

اجرا وثوابا.. يوم لا ينفع مال ولا بنون...

.. وعلى سيرة المال.. فإنه لم يكن يعني لأنيس، شيئا سوى أنه وسيلة، للإكتفاء الذاتي والعيش الكريم.فهو لم يكن يقبل أن يأخذ المعاش المخصص لطلاب الحوزة، حرصا منه على مال الجمهورية، التي كانت في بداية تشكيلها.. بل كان يعتمد في معيشته على المال الذي كان يبعثه له والده، شهريا.. فوالده كان يزوّده بمبلغ من المال، مع بعض الحاجيات، كالأحذية...

لكنّ أنيس، وعلى رغم حاجته الماسّة لكل ما يبعثه له والده، إلا أنه ونتيجة زهده، وتواضعه الجميل، كان يتفقّد أصدقاءه الحوزويين، منتبها الى من تنقصه حاجة من الحاجيات، كالحذاء مثلا.. فيهديه الحذاء الجديد، محتفظا لنفسه بالحذاء البالي القديم...

كان أخا للطلاب جميعا..

لا يهدأ له بال.. يحاول جاهدا أن يكون الجميع سعداء، ومرتاحين، ولو على حساب تعبه وسهره...

... وحتى في سفره، وفي غمرة اهتماماته اللانهائية، ما كان ليتناسى أهله أبدا.. فكان يحمل همّهم، وفي قلبه غصة البعد عنهم، تحرقه كالجمر المتّوقد..

فكم من ليال طوال.. سهرها..

ذارفا فوق يباس القراطيس، هواجسه... كأب ترك عياله كرها... وكلّ عزائه، توكل يقيني على من عنده، تُحفظ كل العيال.

كان يكتب لكل فرد العائلة.. بين فترة وأخرى، رسالةً.. بين سطورها إيقاع القلق.. وشحوب السهاد..المتعب..

«كيف أنتم أيها الأحبة...

...

وهل تحافظون على دينكم.. والتزامكم :ثروة دنياكم وآخرتكم..».

نعم فالإلتزام بالتعاليم الدينية، كان قلقه الأبديّ.. فهو يريد لعائلته أن تكون قمّة في التميّز... بالتقوى.. لأنه المعيار الوحيد للتفاضل بين البشر...

العودة..

... هكذا انقضت السنة الأولى... في الحوزوة... حافلة بالأحداث..

وقرر أنيس العودة الى الوطن، لزيارة الأهل.. وأيضالكي يجري إمتحانات الجامعة للسنة الثالثة، في إختصاصيه اللذين كان قد اختارهما..

عاد الى لبنان.. بعد أن ترك اسمه في ايران، لامعا، كالبدر يوم تمامه.. وبعد أن صار له شأنا مرموقا، خصوصا بين صفوف الحرس الثوري... ومنزلةً عند الإمام الخميني شخصيا..

عاد.. فرحا بلقاء الأهل.. لكن بالمقابل، كان قد ترك جزءا من قلبه معلقا فوق قباب ايران الشامخة.. يتلوّى حنينا.. وألما لفراق أرض مقدسة. وشعب صلب، مجاهد..

.. وفي لبنان..

إلتقى بالسيد «عيسى الطبطبائي».. رفيق الدرب الغالي..

وكان ما بين السيد الكريم، وأنيس.. من العاطفة والمحبّة، ما يكون بين أب وابنه. بل أمّ ووليدها. فالسيد كان يحب أنيسا، محبّة عظيمة لدرجة، أنه لو صادف يوما، ورأى أحد أقرباء أنيس، كعمّه مثلا، يحتضنه، علّه يتلمّس، فيه بقايا من رائحته..

ولفرط محبته لأنيس.. ولأنه كان يعتبره ابنا له، ويعرف أوضاعه.. فإنه أعطاه مبلغا من المال، هدية.. متمنيا عليه، أن يخصصه للزواج..

لكن نفس أنيس.. وكالعادة، كانت تهفو، نحو أمنية علوية جليلة..

والجسد المتّوحد مع رقّة الروح.. كان يحلم بثوب ناصع كما الثلج بياضا، يرفرف حول تقاسيمه المتعبة، ويهبه طمأنينة مهيبة.. كان يحلم أن يردد وجوارحه، مع الملبّين بحناجر المهج .. «لبيك اللهم لبيك ..»..

.. نعم فتلبية الحجّ.. كانت تطرق وبشدّة، على أسماع الروح.. وتولّد فيها عبرات من الشوق..

وبالفعل، فقد هيّأ العدّة، وذهب الى الحج مسرورا.. غارقا بالفرح.. ونشوة الحبور.. والنبض، يردد.. قد جئتك يا حبيب

«بوح حمام»

قلوب الصادقين.. ملهوف الفؤاد.. وعبرة توبتي.. قرباني الأوحد.. أتيتك ويداي ملطختان بأثواب روحي البالية .. لا تحملان سوى بقايامن أمل مشرق الملامح، قد خبّأته من عتمة قناديل عمري الشاحبة..

.. ذهب أنيس.. ومجموعة من العلماء الأفاضل.. والمجاهدين.. وبينهم السيد عيسى.. فكانت حملة، تحوي، أشخاصا عظماء،... قد غفت بين أمتعتهم، خطة خطيرة.. نسجوها بلطف.. فشعّ فوق جبينها تكليف الإمام الخميني القاضي باستغلال موسم الحجّ، لتعزيز وحدة المسلمين، وتعبئتهم لكي يعلنوا وبصوت ثوريّ موّحد، عن براءتهم ضدّ أعداء الإسلام.. من كان معاديا للثورة، متحالفا مع أعداء الإسلام آنذاك...

.. وصلت الحافلة، الى نقطة التفتيش.. وجاءت قوّات الأمن مقلبّة، الحقائب والأمتعة،... وإذا بها تجد في حقائب أنيس، صورا للإمام الخميني، ورزما من المنشورات التي تحوي بين سطورها، ثورة واضحة المعالم...

وأُخذ أنيس مع من أُخذ.. كيف لا وهو قائد المجموعة الثورية، التي لا تحمل همّا سوى همّ نشر الحقّ.. وإزهاق الباطل..

السيّد عيسى، كان قد اعتُقل.. لكنّه اعيد.. اما انيس، فأبقوه.. ومجموعة، بينها أحد أصدقائه العلماء.. وهو عالم فاضل.. لكي يخضعوا للتحقيق من قبل السلطات الأمنية..

... وفي غرفة التحقيق..

لم تفارق صورة الإمام الخميني قدس سره يدي أنيس..

فمع كلّ سؤال.. كان يقلّب الصورة بين يديه.. يلثمها بشفتيّ روحه.. ثمّ يرفعها في وجه المحقّ، مسبلا أجفانه، كعاشق ولهان، هاجه فراق الحبيب... قائلا وبكلّ جرئة للمحقق:

- «أتساءل.. ماذا فعل لكم هذا الرجل؟؟.. لماذا تخافونه؟ وهو صاحب القلب الكبير الواسع.. أستغرب كيف لا تحبونه.. بل كيف لا تذوبون في هواه..».

وإذا بصرخة هوجاء، تنتفض، حاملة احمرار عيني المحقق، وغضبه الثائر:

- «قلت لك لا ترني صورته.. أبعدها عن وجهي ..أبعدها..».

... وبقي بعد التحقيق المفصّل، خمسة عشر يوما، في السجن.. بعدها بُعث فورا، ومن كان معه، على متن طائرة خاصّة. لتقلّهم الى لبنان على وجه السرعة.. ودون أن يحقّق أنيس أمنيته هذه المرّة، والى الأبد.. فالسلطات هناك أصدرت بحقّه قرارا يقضي، بمنعه من دخول تلك الأراضي..

«بوح حمام»

... في لبنان.. لم يكن الأهل يعلمون شيئا مما حدث.. أما الرفاق،فقد عرفوا بالصدفة.. ذلك أنّ الخبر كان قد وصل الى المجلس الشيعي، في لبنان، وحتى الى السلطات في إيران.. لكنّ حرصهم، على أهل أنيس، منعهم من إبداء أي معرفة بالذي حصل. فظلّوا متكتّمين على الموضوع، منتظرين فرج أنيس، بصمت..

وكانوا كلما سُئلوامن قبل أهل أنيس، أن متى ستأتون لكي تزيّنوا لرفيقكم فموعد قدومه قد اقترب..

كانوايتحججّون بحجج مختلفة، فمرة يقولون أن الوقت لا يزال باكرا وهناك المتسع منه لكي يزينوا.. وأخرى، يقولون أنّه باستطاعتهم أن يزينوا في اليوم نفسه لمجيء أنيس.

الى أن جاء يوم.. طُرق فيه الباب .. وكان أنيس.. مجرجرا حقائبه..قد أتى قبل موعد قدوم الحجاج..

وهناك كانت المفاجأة...

البحث عن النصف الآخر

... مهما..

جاهد الإنسان، وعلا ناشدا مجد السماء.. فإنه عبثا يحاول، وسلاحه نصف روح، وجناح أوحد.. لا رفيق له غير ظلّ جناح..

والقلب حتى يتسّع، وتتفتح أوردته لمفهوم الحبّ الأسمى.. الحبّ الإلهيّ المهيب.. لا بدّ، وأن يتلقّى من وحي الحبّ الإنسانيّ، أبجديةً.. تسهّل عليه، تفكيك ألغاز الحبّ السامي..

فبالحبّ تسمو إنسانية الإنسان.. وتهذبّ أنانيته التي تربّت في ظلّ وحدته.

....

فبعد حادثة الحجّ.. بفترة..

وفي جلسة عائلية، دافئة، يترقرق عبر أحاديثها، وداعة أهل القرى.. وفرحة الأنس، بوجود أنيس.. إذا بالوالد .. يسائل

«بوح حمام»

انيسا، عن طبيعة حياته في إيران. «من يطبخ لك، بني؟.. من يغسل لك ثيابك؟.. وهل يكفيك وقتك لتفعل كلّ ذلك، وتهتم بكل شؤنك..».

وبابتسامة هادئة، أجابه «وحدي يا والدي العزيز.. ألبّي كلّ ما أحتاجه لنفسي..».

- «حسنا ما رأيك، أن أشتري لك غسّالة؟ علّها تساهم ولو جزئيا في تحمّل عبء غسل الثياب عنك؟».

- وإذا بأنيس، يبتسم.. لكن ابتسامته هذه المرّة، كانت تخبّئ أمرا خطيرا.. بل طلبا عزيزا، تفتّحت لرقّته وردة من الخجل فوق وجنتيه اللتين اشتعلتا احمرارا.. وبحياء ممزوج بنكهة مرحة أجاب أنيس والده: «ما رأيك أن نأتي بغسّالة متحركة؟؟».

طبعا أنيس، لم يكن يقصد تشبيه المرأة بالغسالة.. فمقام المراة عنده، مقام له قدسيته، وعظمته.. وكيف لا يقدّر المرأة، ويعظّم دورها، ومكانتها، وهو عاشق الإمام الخميني قدس سره، الذي شبّه دور المرأة بالقرآن، حيث أنّ كلاهما قد أوكل إليه صنع الإنسان..

نعم، فلولا تقديره لها، لما كان بحث عنها. واجدا فيها، نصفه الآخر، المفقود، الذي يساهم في إيصاله نحو الكمال

الإنساني المنشود...

وجلّ ما أراده أنيس من خلال هذه النكتة، أن يوصل وبطريقة لطيفة، تليق بالجلسات العائلية.. انه يرغب بالزواج..

وطار قلب الوالد فرحا. فهو الذي كان ينتظر هذا الطلب، منذ زمن وبفارغ الصبر..

ولم تصدّق العائلة خبرا، حتى انهالت عليه مجموعات من الأسماء المُقترحة.. أسماء من والدته التي أربكتها الفرحة.. وأخرى من والده، وإخوته، حتى ضج البيت بحفلة من الأسماء... هذه تصرخ: أنيس.. فلانة مناسبة لك.. وآخر يقطّب حاجبيه، معترضا.. لا ففلانة الفلانية، تناسبه أكثر..

وآخر يعترض غيرموافق على كلّ ما طُرح، فأنيس، يجب أن يتزوج فتاة لها مواصفات دقيقة..

.. وأنيس صامت.. غارق في تأملاته.. قد تركهم بأسمائهم فرحين..

لكنّ الوالدة أبت أن تمضي الليلة، كباقي الليالي، دون أن تسميّ الأشياء بمسمياتها.. ودون أن يرفرف حول قلبها، وجه العروس المُنتخبة، فبادرته بالسؤال: ما رأيك يا أنيس بالأسماء المقترحة؟ لا بدّ على الأقل أن تكون هناك واحدة قد رأيتها

مناسبة لك؟...

فأجابها: ما ذكرتموه من أسماء، هي لفتيات أحترمهنّ.. لكنهنّ بنات شخصيات لها مكانتها الإجتماعية والسياسية، ومهما تكن هذه الشخصيات مقرّبة لنا، وعزيزة علينا، إلا أنني محال أن أتقدّم لخطبة إحدى بناتها..

.. وذهلت الأمّ.. فأكمل أنيس حديثه، قائلا:

أماه.. ماأريده، امرأة متواضعة.. من بيت بسيط، يكاد لا يعرفه أحد، امرأة معذّبة.. أو حتى يتيمة.. أضمّها تحت أجنحة محبّتي.أمسح لها دموعها، وما تركه الدهر من خطوط ألم فوق جبينها، وبصمات وجع فوق شغاف روحها..

أماه وإن وجدت امرأة كهذه، فإني سأقترن بها، لا شفقة، بل تقديرا لها.. لهول معاناتها.. وكجوهرة نفيسة سأحافظ عليها طالما أنا على قيد الحياة...

وازداد ذهول الوالدة.. مُرافقا بذهول كلّ من كان حاضرا.. ولم يكن لهم من لغة يردّون بها، غير الصمت جوابا.. فمن أين جاء بهذا الإحساس الرفيع؟ من أين أتى بهذا التفكير الراقي؟...

.. ومرّت أيام.. تركت العائلة فيها، أنيسا.. لحاله.. علّ

الصدفة، تجمعه بشريكة العمر..

وإذا بيوم تنفجر فيه فقاقيع الصمت المصطفة زمنا في حنجرة الوالدة.. وما إن رأت أنيسا، حتى بادرته قائلة: ماذا؟ هل وجدت لك عروسا؟

وبقي صامتا.. لكنّ هالتين من الإحمرار، ارتسمتا على خدّه بوضوح، ففضحتا أمره... وزغرد قلب الأم فرحا.. وانهمرت عليه بالأسئلة تترى، سؤال يتبعه سؤال.. إبنة من هي؟.. ألطيفة طيّبة هي..

وبعد سلسلة من التحقيقات.. شدّ أنيس، وأهله الهمّة، وانطلقوا طالبين يدّ العروس الكريمة..

أنيس، كان واضحا ومنذ البداية مع العروس، وأهلها..

فأخبر العروس، التي كانت معتادة على العيش، في منزل ميسور الحال، أنّ إمكانياته الماديّة للزواج، لن تتعدّى، حصيرا وخزانة.. لكنه بالمقابل وعدها بحياة كريمة، في ظلّ الأخلاق.. وجمال التعامل الإسلامي..

فرحت العروس، بصدق أنيس.. ورأت فيه الشريك المرتقب.. لم تهمّها المادة.. ولا سحر فقاقيعها البرّاقة.. لأنها كانت تدركها قبرا رخاميا، يخالها الإنسان، بسذاجته قصرا مرمريا. فإذادخله عاشقا، وجد في تعلّقه المستميت، موت

«بوح حمام»

روحه.. وهلاك إنسانيته..

فالمادة، محال أن تصنع السعادة.. لأنها جماد.. لا جمال فيها، ولا إحساس.. والإنسان، وحده قادر على إبداع السعادة، وأعاجيبها.. حتى لو كان غارقا بالفقر، والحرمان..

لكن، هيهات.. فقرار الأهل صدر لا رجعة فيه. «أنيس ليس العريس المناسب لك» .. وختم بالشمع الأحمر...

... عاد أنيس، وفي قلبه نخلة من الصبر، قد نبتت باسطة أوراقها سلالا من الوجع والدموع.. يحدّث نفسه المتأوهة: لست انسانا كاملا، وفيّ من السيئات الكثير..

لكن.. لكنّي على الأقلّ.. إذا تزوّجت، فسأسعى جهدي أن لا أجعلها تعاني. لأنّ في روحي سعادة، أودّ أن أقاسمها لمن ستكون زوجتي.. فليس المال من يشتري السعادة، ويجلب الهناء.. بل السعادة في كلّ إنسان موطنها...

... وتوالت الأيام، دافنه بزمانها السائر.. رغبة أنيس،وأمنيته، بلقاء امرأة طموحاته.. وعاد الى نشاطاته.. يوّزع من روحه، ألوانا من الحياة، كي يحيا الإسلام، في أمتّه، عريقا.. أصيلا..

وأتى يوم... كان أنيس، يرتاد كما العادة، منزل أحد أصدقائه..

.. ولفتت نظره فتاة.. جذبت نظرته الخجلة.. كما تجذب الوردة، فراشة هائمة الفك..

عاد الى البيت، وفي قلبه.. شعاع رقيق.. قد اتحد ومشاعره، فوّلد في نفسه دفئا وانشراحا.. وفي روحه، صراخ مشاغب، يطالب وبقوّة، بنصفه الآخر..

.. وتقدّم طالبا يد، من أثارت في نفسه زوبعة من الجمال الفاتن..

تقدّم.. لا يحمل لها من هذه الدنيا، سوى فؤاد، أوردته تنضح بنور بمحبة الله.. وسوى كفّين، تفيضان رحمة وحنانا.. وسوى وعدَ إنسان حرّ، مسؤول، عن دَينه، بأن يسعى جاهدا لإسعادها.. ولو كان منزله مؤلفا من حصير وخزانة.. وطعامه خبزٌ وشاي..

والدة العروس.. كانت تمتلك من الثقافة الإسلامية، والوعي.. ما جعلها تنظر الى ماأبعد من القشور الماديّة. فرأت في أنيس، الإنسان المؤمن صاحب الروح الجميلة، والثروة المعنوية النادرة.

ولأنّ العروس كان يهمّها رأي والدتها، فإن الوالدة، وحين رأت في أنيس، الخلوق، المؤمن الذي لو رُدّ،تكن فتنة في الأرض وفساد كبير، فإنها سلّمت بالقرار النهائي الى الخيرة.. حيث

«بوح حمام»

نصحت ابنتها، بإجراء الخيرة، منبّهة إياها على أبعادها، وأغوارها الغيبيّة.. التي يكاد معظم الناس، لا يفقهونها. أفنتائج الخيرة، حتى لو خيّل إلينا يوما،أنها جاءت سلبية، ومؤلمة.. إلا أنها تكون مليئة بالخير، الذي نجهله.. فعقل الإنسان القاصر.. عن إدراك الغيبيات... لا يستطيع إدراك إيجابياتها..

أو أُجريت الخيرة..

.. وذهب أنيس، في اليوم المحدد.. كي يتسلّم الإجابة..

وحينما عاد من بيت العروس، عاد يحمل في جعبته فرحة العمر.. ونبأً ملأ البيت بالزغاريد..

جاءت، موافقة العروس، القائمة على الخيرة، كغيث أمطر المنزل أفراحا وأعراسا.

.. وجاء يوم العرس الموعود..

أنيس وعروسه، لم يرضيا، إلا أن يكون عرسهما، مبارك من أهل السماء، كما بورك من أهل الأرض.. أن يكون عرسهم، كعرس من بحبّهم يتغنّى الفؤاد سكرانا.. ويلهج بفضائلهم الكريمة دامعا .. كعرس «عليّ وفاطمة» عليهما أفضل الصلاة والسلام. عرسا أطعم كلّ الجائعين. وأفرح كلّ

المحزونين على رغم تواضعه..

.. فجاء العرس، عرساً شرعياً.. لا هرج فيه ولا مرج.. هادئا، لطيفا قد كُلّلت أجواؤه، بذكر آل البيت عليهم السلام.. وفضائلهم.. واقتصر على تقديم وليمة عظيمة، أُعدّت لأربعمئة شخص.. حبّا بآل البيت عليهم السلام.

حينما يئنّ الحنين

.. حبّ الوطن .. فطرة في الإنسان.. كما حبّ الأمّ..

لكنه يمسي فضيلة راقية، حينما يتخطّى مساحة جغرافية معيّنة.. ويصبح بحجم أمة.. بحجم قضية..

عقيدتها راسخة، في العروق، تجري كما يجري دم الحسين، بابعاده، في أوردة الإنسانية..

أنيس كان يعشق وطنه!.. لهذا.. وعلى الرغم من زواجه..إلا أن إيران بقيت همّ القلب، وقلقه الذي يسكنه، مستثيرا فيه أنّات الحنين..

كان يشعر أنّ إيران جزء من هاجسه.. وفلذة من روحه،.. وقضيتها قضية كلّ مؤمن يسكنه شهامة العروبة، وشرف الإسلام..

خاصّة أن الفترة ما بين عام ١٩٨٠ ـ ١٩٨١ كانت حافلة.. فالمؤامرات الداخلية، والخارجية.. كانت تحاك ضدّ قيام

جمهورية إسلامية..

ففي أواخر شهر أيلول عام ١٩٨٠ شنّ العراق، وبإيعاز من الأميريكيين هجوما واسعا، ومكثّفا على إيران، مستخدما آلاف الدبابات والوحدات البريّة والجويّة.. وفي صباح ذلك اليوم، قصف الطيران العراقي بشدة إثني عشر مطارا...

.. أنيس لم يحتمل البقاء في لبنان.. بعيدا عن القضية..

لذا فقد حمل زوجته، شدّ الرحال.. وسافر الى قسيم وطنه الأمّ.. الى قبلة أحرار ذلك الزمان..

.. عاد الى إيران هذه المرّة، والى جانبه شريكة العمر.. قد نذرت نفسها بسمة لزوجها، إن عبس الدهر بوجهه. وشمعة إن أسدلت الأيام دُجاها، راضية بالجهاد المضني.. إقتداء بمن وهبوا ربيع عمرهم ليبقى الدين شامخ الرأس..

عاد، ونشاطه ما وهن.. بل تضاعف مزدانا بالصبر والتوكل..

كانت عودته الى إيران أوائل عام ١٩٨٢م. عودةً.. بدؤها جهاد متواصل، لا كلل فيها ولا تذمّر. وانخراط مباشر في أعمال ذات مستوى عال من المسؤولية فأنيس حينما عاد الى إيران، لم يكن بحاجة إلى بطاقة تعريف، تدقق في هويته. وتعرّف عن تاريخه الجهادي، المحبوك بعرق التضحية

والإيثار..

فعودته هذه المرّة.. والى جانب رغبته في تكملة العلوم الدينية، إلا أنها كانت وبالدرجة الأولى مشروع جهاد الى جانب كلّ الذين يبذلون أنفسهم، من أجل ان تحيا أمتهم حرّة أبية.. فكلّ القوى الإستكبارية، كان هدفها أن تسقط إيران، لتُسقط عبرها كلّ الهمم والمعنويات في أمتنا المجيدة.. ولتلجم كلّ إرادة واعية، تخطط للمقاومة والعصيان..

لذلك.. فقد رأى أنيس، أن واجبه يقضي بوجوده في هذا البلد العظيم، الذي أزكى العالم بعلومه. يسانده بكل ما أوتي من إمكانيات مادية، ومعنوية.. حتى وإن تطلبّت التضحية بذلا للنفس والروح..

.. في إيران هيّأ منزلا لزوجته العزيزة في مدينة «قمّ».. بتجهيزات متواضعة...

وأدخلها اليه فارشا لها دفء حنانه، بساطا.. ناثرا بسماته، لغربتها قناديلا تطفى ظلام الوحشة... وتذيب مرّ البعاد عن الأهل والأحباب.. كلما هاج الحنين..

... كم كان قد حذّرها.. من مرارة الجهاد.. من قساوة الصبر..

لكنها قبلت بكلّ عذاب.. بكلّ طعنة ألم.. فداءً لعينيه..

لم عينيه.. لانهما تختصران حكايات الالم.. في مسيرة التضحية.. لأنهما تنطقان بأروع قصائد حبّ.. لأروع دين وأكمله..

.. كان أنيس يحترم فيها ذلك الصبر العجيب.. فكلّ أيامه.. نهاراته، ولياليه.. مواسم زرع وحصاد.. سواء في جنون الشتاء أم تحت سياط الحرّ...

وهي كانت تقدّس فيه تلك الشهامة.. تلك الغيرة.. والإنكباب، بل الإستماتة في الدفاع عن دينه.. وأمّته..

لكن ما كان يدميها، ويميتها حزنا، وكمدا..

أن تسمعه، وفي هجيع الليالي.. منكبّا على وجهه، يعانق بجبهته موضع سجوده.. وروحه تسبح في فيضان الدموع، متوّسلة أن يهبها الله تعالى، نفحة من أثير عدن..

كانت، تغرق سمعها، في شهقاته المتتالية.. تسمعه كيف يناجي ربّه مرتجفا، غارقا بنوبة البكاء.. مصرّا على طلب الشهادة..

كانت تسمعه.. وتبكي... بحرقة تذرف دموعها المعذّبة.. وتبتلع صرخاتها بصمت جريح.. تنتظره أن يفرغ من دعائه، وخشوع صلاته.. لتسأله بانكسار شاحب.. لمَ.. لمَ يا أنيس تطلب الشهادة؟... لعلّك تشعر بالتعاسة معي؟..

وتجهش بالبكاء.. ويبتسم انيس، للطفولة التي، لا تزال تسكنها بريئة، مهذّبة يبتسم، لفيض محبتّها الوادعة.. يحتضنها بكفيه.. يخفف عنها ممازحا، ثمّ يشرح لها القصّة والمشروع...

... ... الشهادة، يا حبيبة.. حلمي..

ويجب أن تكون حلم كل مؤمن.. أُحبّ الحياة، وأعشقها معك.. لكن جلّ ما أتمناه.. أن لا تكون نهايتي.. إلا الشهادة.. وسام هي.. يشدّني بريقه.. ويذيبني، كفراشة عشقت نور الشموع.. حتى صارا واحدا..

.. وتطمئنّ للكلمات..

لعذب همساتها.. الصادقة..

تغوص في معانيها، محلّقة الى عوالم سماوية، غريبة.. ثمّ لا تلبث أن توقظ نفسها من غفوة الهواجس.. مؤنبة عاطفتها التي تشدّها دائما الى رسم صورة حزينة، ألوانها.. خليط من الدموع والآهات..

تؤاخذ جموح أحاسيسها... بالفعل لمَ يؤلمني دعاء أنيس؟؟.. فكلّ إنسان مصيره الموت... وليس من أحد على وجه هذه الفانية، وله علم بساعة موته، ولا بالطريقة التي سيسلم روحه فيها.. فلمَ أبكي؟.. أوليس الأفضل أن نموت

شهداء؟...

.. وهكذا روّضت زوجة أنيس نفسها...

كما تروّض الزهرة بتلاتها.. على لسعات النحلات .. وزمجرة النسائم المتعالية..

فالحالة لا تحتمل غير الصبر، والدعاء... حتى ولو كان في الأحشاء طفل.. يسبح مغمّض العينين.. لا يعرف ما ينتظره من مصير مجهول المعالم..

... كان أنيس في هذه الفترة، يقسّم وقته ما بين الحوزة، ونشاطاته المتمثلة بتكاليف الإمام الخميني.. والتي كان من ضمنها إحداث ثورة إعلامية، وتوعية تبين مظلومية الشعب الإيراني، وأهداف الدول الأستكبارية، ومخططاتها الخبيثة.

... وأتى أيّار..

منكّسا أيامه، بحزن عميق..

شاحب النسائم.. يتمشّى الهوينة.. فوق تراب لبنان المجبول بالنكبات .. النازف بالآهات..

أتى.. معذّب الفؤاد.. وخطاه مكبّلة بأصفاد الهزيمة والخيبة..

عيناه.. تهطلان أوجاعا.. على زمن.. صار الربيع فيه، يأتي أسيرا، ممسوخ الجمال.. قد داست معالمه، جحافل

«بوح حمام»

شيطانية..

.. وفي وقت كان الإجتياح الإسرائيلي .. يقتحم الأجواء اللبنانية.. مُستقبلا بالورود، منثور الخطى بالأرز..

كان «أنيس».. في إيران.. يسخط على الزمن الذي صار فيه الإحتلال، خيرا ينثر لمجيئه الزهر والياسمين.. كان.. يتلوّي ألما.. ويذرف دموعا، ملؤها عتاب.. لكل يدّ، لوّحت لهذا الإحتلال الغاشم.. الذي لا يستأهل سوى الرصاص والقنابل. وسوى ثورة عارمة، تستأصل شرّه اللامتناهي..

... لم يطق أنيس، صبرا.. على بعده عن لبنان، في تلك المرحلة الحرجة.. فقرر العودة.. وعلى وجه السرعة..

لكنّ السلطات الإيرانية.. تمتّت على أنيس، الرجوع عن هذا القرار،فالوضع خطر.. وحسّاس..

أنيس أصرّ على العودة.. خاصة أنّ هناك وفد إيراني، دبلوماسيّ، كان ذاهبا الى لبنان.. فأخبرهم بأنه لا مانع لديه، من الذهاب معهم..

لكنّ السلطات، رفضت وبلطف الخائف على إبن له، أن تبعث الشيخ أنيس إلى لبنان، خاصة مع الوفد الدبلوماسي،

لعلمها أنّ الوفد معرض لمختلف الأخطار.

وفي فترة الإجتياح، كانت التحضيرات لمؤتمر المستضعفين، قد بدأت، وكان المطلوب من الشيخ أنيس أن يكون حاضرا في هذا المؤتمر، بتكليف من الإمام الخميني قدس سره الذي طلب منه أن ينوب عنه في هذا المؤتمر، والذي عُقد للتباحث في أمور، ومشاكل العالم الإسلامي..

لاحظ أنيس عمق المحبة التي أولته إياها إيران، بسلطاتها، وشعبها الذي عاش في ظلّه زمنا.. فاقتنع بالبقاء.. مكتفيا بالدعاء لوطنه.. وأمته.. وشارك في المؤتمر، الذي حضره علماء كبار، ورجال سياسيون من كافة البلدان الإسلامية. وألقى في المؤتمر، خطابا غنيا ومؤثرا، حوى في طياّته حديثا مهمّا. بيّن من خلاله عظمة ما يقوم به الإمام الخميني (قدس)، وضرورة وجود أمة حزب الله في كلّ بقعة من أرض العالم الإسلامي.. داعيا الحكام الى الصبر على الجهاد، لأنّ الجهاد مرّ لكنّ نتائجه جليلة. وأنّ العدوان لا يردّ كيده إلا بالسلاح. فلا التفاوض يجدي نفعا، ولا إتفاقيات الودّ والسلام..

أمّا الوفد الدبلوماسي، فقد وصل الى لبنان، ولم يصل.. ذلك أنّه خُطف من قبل الإسرائيليين.. والى الآن لا حسيس ولا

«بوح حمام»

خبر..

.. في إيران لم تغب أجواء التوتر، ولا سُحب الحرب.. الكئيبة..

فالحملات العراقية التي كانت قد، بدأت في أيلول من عام ١٩٨٠ , . تتالت، وبكثافة.. على إيران.. حيث كان العراق، يشنّ حربا عنيفة، مستخدما بذلك أحدث الأسلحة، مدعوما من جميع دول العالم، ماليا، سياسيا، وتقنيا.

وفي المقابل لم يرث الإيرانيون سوى أسلحة قديمة، وخبرة خجولة بفنون الحرب، ذلك أنّ أكثرهم كانوا حديثي العهد بالحرب،إضافة الى نقص شديد بالمعلومات الأمنية.. وطوق إعلامي واسع، مع جيش من العملاء في الداخل، يعيثون الفساد، والقتل والإشاعات، علّهم يغرقون البلاد في فتنة عارمة، تساهم في القضاء على الثورة، وإنجازاتها، فتقدّم بذلك للعدوّ، خدمة جليلة..

.. هذا الوضع المتأزم في إيران، والذي لم يشتعل لولا جهل الجيش العراقي، فرعنة نظامه الفاسد.. تطلّب حلّا سريعا، لا يسوّى لا بالإستسلام، ولا بالمفاوضات، إنما بالردّ الثوري.. لذلك فقد أصدر الإمام الخميني قدس سره، تكليفا، يقضي بإعلان الجهاد المقدس... حفظا لكلّ قطرة دمّ أريقت في سبيل قيام

دولة إسلامية وفي سبيل الحفاظ على عراقة وكرامة الشعب الإيراني الشريف..

وتلبية لنداء الإمام، إحتشد الشعب الإيراني من كلّ حدب وصوب، حاملين دماءهم فوق أكفّ عزيمتهم، فارشين أكفانهم، جسرا، نحو نصر آخر..

.. وما إن سمع أنيس النداء، حتى هبّ في عداد الملبّين.. قاهرا تردد النفس حينما يصل الى سمّعها، لُهاث الموت الأحمر.. وابتسم للحلم الآتي على صهوة الجراح.. على أجنحة الألم..

وفي ليلة ما قبل الرحيل..

وقبل أن يشدّ الرحال، ملتحق بصفوف المدافعين عن عزة الإسلام..

كانت زوجته.. تتهادى أمامه جيئة وذهابا.. وبطنها قد انتفخ، حاويا في الأحشاء طفلا رقيقا.. قد مضى على إقامته في تلك العتمات، أربعة أشهر... كان ينظر إليها تارة.. والى الطفل الملتفّ بشال الأحشاء طورا آخر.. ويبتسم.. لربما كان يناجي ذاك الطفل.. تلك الليلة.. ولا أدري.. أو كان يلقّنه بالصمت الباسم، كيف يكون الصمت لغةً وحوارا...

كان يغيب.. رغم حضوره.. ثمّ يعود رغم غيابه.. ويبتسم.. كالشمعة، تذوي بسحر وابتسامة.. رغم سكاكين الليل.. وسياطه..

.. وفي اليوم التالي.. أخذ زوجته، الى السوق، لكي يجّهزا

ما سيحتاجه الطفل من حاجيات.. وليشتريا اغراض للمنزل.. وكان كلما أراد أن يشتري ثوبا للطفل، إختاره زهري اللّون.. أو لونا لا يخصّ سوى الفتيات..

ذاك اليوم، عاد أنيس وقد اشترى لزوجته، حاجيات كثيرة، تكفي لشهور مستقبليّة.. أما جهاز الطفل، فكان جهاز فتاة..

الزوجة، استغربت، أفعاله.. لكنه سابق أفكارها.. أخذ كفيها، بدفء راحتيه وقال.. «سمّيها زينب... وإن كان صبيّا سمّيه حسن، لكنّ قلبي يهمس لي أنها بنت.. بنت كالوردة رقّة..»..

وبقيت، عيناه قصيدة.. بدلال تهمس:

.. إن متّ أنا لا تبكيني..

إبكِ الوطن إن خانوه.. أو باعوه بحفنة طين فاسدة...

إن متّ أنا سيبقى على قبري.. قصة حبّي..

قصة عشقي شاهدة.. أصلب من الشاهد برخامه..

إن متّ أنا لا تذرفوا دمعا..

إذرفوا أزهارا.. وموالد.. فالباري قد حقق حلمي..

دوّن إسمي في اللوح الخالد...

إن متّ سيبقى موتي.. راية حبّي..

ضريبة عشقي...

«بوح حمام»

وإني لأفخر أنّ العشق قد هيّمني..

حتى صرت «مجنون خميني»..

بل مقتول بعشق خميني..

... .

.. وفي اليوم التالي.. ودّع أنيس زوجته.. وداع من باع الدنيا.. وطلّقها.. وغادر المنزل، ملتحق بصفوف الملبّين لتكليف الإمام..

المسؤولون.. حاولوا ثني أنيس عن قراره.. فهو ليس معنيا بالتكليف، ذلك أنه مختص بالشباب الإيراني..

وهو لبناني جاء من بلد آخر كما أنّه ليس إنسانا عاديا بل عالم لديه عمل عظيم ينتظره.. ولديه زوجة تنتظر طفلا.. وليس مضطرا، للإستشهاد..

لكن، هيهات.. فالقضية، اعمق وأشمل من هجوم عراقي، على مساحة جغرافية تسمّى إيران، والمعركة، ليست معركة دفاع عن حدود، ومساحات وشعب دون آخر.. إنما المعركة، هي معركة قضية.. وعقيدة.. شريفة ومقدسة، هي معركة إلغاء لدين عزيز، أرعب الطغاة، بمفاهيمه العميقة، والتي تقود الى يقظة عارمة.. في كافة أنحاء البلاد..

والتكليف ليس صادرا عن قائد عاديّ.. قد سكر من مدام

الحماس والإندفاع ما جعله، يسارع بإصدار هكذا تكليف.. إنما التكليف صادر عن إمام عظيم، لم يكن لأحد من عظماء التاريخ وقادتهم، حياة مليئة بالتضحيات الحكيمة، والآلام الجليلة.. مثلما كان لهذا العظيم..

لذا فقد كان من المستحيل، إرجاع أنيس عن قراره.. «هل يدعو الإمام للجهاد وأنا أبقى جالسا ههنا؟؟ مستحيل..».. «إنّ الجهاد بين يديّ الإمام الخميني حفظه الله. وتدمع عيناه. فرصة لا تعوّض..».

وانضمّ أنيس الى جيش الإسلام الضرغام.. فرحا.. بل مغمورا بنشوة السرور..

وما رضي إلا أن يكون في الصفوف الأمامية.. وخطوط التماس..

فكان يقاتل بشجاعة نادرة شهد لها كلّ من كان معه في نفس الموقع...

... كانت لحظات القتال.. مفعمة بالمعنويات.. وفيضا من رحمة، غمرت أبطال الإسلام الغيارى، بانشراح، وطمأنينة...

فالرصاص، في بنادقهم.. الهزيلة.. كان يصدح مع تكبيراتهم العلويّة، معلنا عن مدد غيبيّ.. يريهم بعين الروح ما خفي عن المنافقين...

والقنابل.. في أيديهم.. كانت تلوّح للأعداء.. بملحمة نصر آتية، بدؤها دمع ودماء ... وتنهيدة وجع محتوم...

المعارك.. شرسة كانت، وعلى كافة الجبهات، خاصة أنّ الجيش العراقي كان مدعّما بمختلف أنواع الأسلحة المتطورة.. لكنّه كان ينقصه دعما روحانيا يقوّي فيه الجانب المعنوي.. وتنقصه عقيدة، وقضية يبذل لأجلها دماءه رخيصة..

على عكس جيش الإسلام الذي لم يكن يملك من الإمكانيات الهائلة، سوى إيمانا صلدا.. وقضية عظيمة.. وتوكلا عجيب اليقين، على من النصر من عنده عزيزا، مهيباً..

... وتتالت العمليات الدفاعية، المنظمة وفق خطط حكيمة،.. وكان لكل دفعة من العمليات.. عنوانا يختصر أهداف المسيرة الجهادية.. المكمّلة لأهداف الثورة الإسلامية..

وكان الشيخ أنيس... في عداد من خاضوا عمليات عسكرية، أُطلق عليها «عمليات بدر الكبرى»...

... في الجبهة لم تكن كلّ اللحظات قتال... بل لطالما تخللها أويقات راحة من قساوة الحرب...

مقتطفات من أويقات.. منها ما كان يُستغل بالدعاء..

واخرى بالصلاة.. واخرى بالتاملّ في حال هذه الدنيا..

.. الشيخ أنيس.. كان وبصمت يتسلل.. في تلك اللحظات.. وحيدا.. يعتلي صخرة ما... ويبحر ..في تأملات نورانيّة.. كما يبحر زورق حزين الشراع.. في سديم بحريّ الملامح..

فغربة الروح، في جسده المتعب... كانت تخنق أنفاسه...

تلهب إحساس الفناء في وجدانه... فناء في العشق هو.. لا بشيء آخر...

فناء في حبّ مقدّس... بعيد عن معتقلات الحواس... بعيدا عن فرعنة الطين.. وكبريائه المتعالي..

... ولم يكن ليجد.. متنفّسا.. لحزن أعماقه.. سوى في مناجاته الصامتة.. أو في كلمات.. يذرفها خاشعا.. فوق ورق.. طالما حمّله فلذا من لواعجه.. ومشاعره الصاخبة...

وآخر.. ما كتبه في تلك اللحظات الآخيرة.. كان وصيّة.. ضمّنها بريقا من شعلة النور التي كانت تؤرق روحه الطاهرة...

حقوقا.. وواجبات.. طالب بأن تُقضى عنه.. شيء طبيعي...

لكن الأمر الذي لم يكن طبيعيا.. جملة.. لا زالت حروفها الى الآن علامة تعجب فوق ضريحه العزيز.. جملة قد فضحت

«بوح حمام»

ما كان يُغرق عينيه بشرود كئيب وما كان يخفيه من حبّ.. قد وقع في شراكه طويلا...

كتب الوصيّة... أمّن أحدهم على إيصالها... واختفى؟...

تقدّم مستبسلا.. نحو الخطوط الأمامية... وامتلأت الأجواء بغبار الحرب.. مثيرة دخانا متصاعدا.. وضجيجا.. ينتزع لسماعه خفقَ القلب مرتعشا.. وبعد معركة حامية.. إختفى الشيخ أنيس.. ولم يُر.. منذ ذلك الوقت، له أثر.. حيث كانت الأيام تتشح بحرّ تمّوز...

المسؤولون.. لم يشاؤوا أن يوصلوا خبر فقدان الشيخ أنيس الى أهله، علّ الأفق يلوّح لهم بجديد.. فيتبيّن أنه لا يزال على قيد الحياة..

... ومرّ شهران والشيخ أنيس مفقود، لا جثّة تخبر عن إستشهاده، ولا خبر أو حتى إشارة تلوّح من بعيد أو قريب عن أسره.. فقرر المسؤولون إخبار الأهل.. وبُعث وفد الى أهل الشيخ أنيس،فعرضوا عليهم السفر الى إيران، ليروا الوضع عن كثب.. وسافر الأهل علّهم يشتمّون في أجواء إيران ولو خبرا عن حبيب فؤادهم المفجوع.. أو عطرا من عبق طهره.. وبقوا هناك شهرين، لكن لا من خبر ولا إشارة ولو خجولة، تطفيء نيران القلب، وعذاباته.. وقرر الوالد العودة الى لبنان.

أما الوالدة فقد بقيت الى جانب إمراة ولدها العزيز، لأن وقت وضعها كان قد اقترب..

... وأتى يوم المخاض.. يوم بكت الأوجاع فيه أفراحا.. وابتسمت الدموع فيه ضاحكة.. فلكم غابت في تلك العائلة، صورة الأفراح.. مذ غاب أنيس والقلب يهفو لصدى ضحكة.. لرنّة بسمة..

ووضعت زوجة الشيخ أنيس.. «زينب»... كانت طفلة.. كالوردة رقّة.. أضفت بهديل بكائها.. في البيت المحزون حياةً.. فترقرق لمرآها المنعش، وقع دمع غارب في طيّات الجفن المتعب... وابتسم الثغر المأسور، بقيد العبرة..

آه.. يا زينب.. كم كان مجيئك.. ساحرا..

كم كنت تشبهين والدك في تلك الليلة..

كم كانت عيناك تحدّثنا.. عن فرحته باللّون الزهريّ.

يحيط جمالك الملائكيّ كأميرة...

كم كنت جميلة.. بمجيئك...

كقطرة نور.. في عتمة قبر.. قيّده الموت طويلا..

آه يا زينب.. ما أروعك حين تنامين.. وحين تبكين..

وحين تُلوّح في الأفق يديك.. وتبكين...

... «زينب»... جاءت مسحة دفء.. فوق أرواح سكنها

«بوح حمام»

صقيع الحزن.. وبسمة إنشراح، فوق وجوه.. كبّلتها تقاسيم الوجع... منذ فقدان أنيس...

... وبعد فترة من ولادة «زينب».. بعث الإمام الخميني قدس سره، في طلب العائلة الكريمة.. فقابلهم.. ماسحا فوق رأس زينب، بيده الكريمة، مهنّئا إياهم على شهادة الشيخ أنيس.. وبعد هذه المقابلة المشرّفة، عادوا الى لبنان.. وليس من بشرى، يستأنسون بها سوى ولادة طفلة.. غمرت البيت بالحيوية..

... ومرّت الأيام بطيئة.. متثاقلة...

والأخبار على حالها.. لا جديد.. في قضية فقدان الشيخ... وفي أوائل تمّوز.. قبيل ذكرى إستشهاده من عام ١٩٩٥ , . كانت العائلة قد قررت العودة الى بيروت بعد فترة كانت تسكن فيها، في الجنوب..

والدة أنيس.. الحاملة همّ البيت.. على الدوام.. أول ما قامت به، هو حملة نظافة واسعة.. «تكنيس» من هنا.. وماء يندرج من هناك.. ساحبا معه غبار المدينة ووحولها.. الى أن هبط اللّيل.. وهبطت معه عزيمة الوالدة، التي هدّها التعب.. وخاط فوق أجفانها شرانق النعاس.. فغفت.. بهدوء، وسكينة. وإذا بها تسمع صوت جارها، يناديها وبصوت مرتفع. فاستفاقت مذعورة، وهرولت نحو النافذة تسأل ما الخبر.. وإذا بجارها يقول لها «أسرعي يا حاجّة فالشيخ أنيس قد عاد»... «يا مشحر؟» تمتمت الوالدة، «من أين عاد؟» ونزلت

الى الباحة الامامية، فإذا بها ترى أنيس.. بشحمه ولحمه.. ولم يسعفها وقع المفاجأة في تفسير، ما يحصل.. فسقطت مغشيا عليها.. واقترب الجار، يريد أن يساعدها في القيام. لكنّ الشيخ أنيس صدّه بلطفه المعتاد، قائلا له أنا أعتني بأمّي.. واستفاقت الأمّ على نغمات صوته، التي اشتاقت لإيقاعاته، وأول ما قالته له: «لي زمن أبحث عنك؟ أين كنت يا حبيبي؟؟ أين؟».

فأجابها «لا تلوميني يا أمّاه.. إنظري.. إنظري الى إصابتي، لقد أُصبت في بطني،.. « فأمسكت الأمّ يده وهمست «يا تقبرني» فقال لها «ويدي أيضا يا أمّاه»... همس بهذه الكلمات.. وصحت من المنام.. وفي عينها دمعة دافئة.

وفي تاريخ ٢٧ تمّوز ١٩٩٥ ,. ذكرى إستشهاد الشيخ أنيس، عثر الإيرانيون على جثّة الشيخ أنيس، ضمن مقبرة جماعيّة، من المقابر التي حفرها الجند العراقيون الجاهل... وسافر الأهل للمشاركة في التشييع.

أوّل ما فعلته أمّ الشهيد حين رأت الجثّة، أن تفحّصت مكان إصابته.. فكان المكان نفسه الذي رأته في منامها..

وشُيّع الشهيد في موكب مهيب، شارك فيه الحرس الثوري،

وجزء من الشعب الإيراني الطيّب، الذي يكنّ للشهيد محبّة عميقة، ويحترم فيه تلك التضحية العظيمة التي قدّمها، حبّا للإسلام المتمثّل بشخصية الإمام الخميني قدس سره.

.. ودُفن الشيخ أنيس، وكما أوصى، في المكان الذي دفنت فيه السيدة المعصومة، في إيران... وحُطّ على ضريحه، عبارة أوصى بكتابتها بالخطّ العربّي، والفارسي إن أمكن «هذا قبر الشهيد أنيس أحمد جابر، سيف الله العاملي، الذي عشق الإمام الخميني حتى القتل... وكان إذا سمع بإسمه بكى».

.. وقديما قيل من العشق ما قتل..

لكنّ الاهل، ما قبلوا أن يبقى عزيز الروح، وضريحه الغالي بعيدا عن أكفهم المشتاقة، وعن همس أدعيتهم.. فطلبوا أن ينقل الجثمان الى لبنان.. وفعلا فقد تمّ نقله الى لبنان... وبقي ضريحه حكاية العشق.. وفوق شاهده، بقيت عبارته «هذا الذي عشق الخميني حتى القتل» بوحا من سرّ حكاية!!

والحمد لله ربّ العالمين

«بوح حمام»

ملاحظة: المعلومات الواردة عن أحداث الثورة الإيرانية، والإمام قدس سره مأخوذة من كتيب صادر عن بقية الله تحت عنوان «الإمام الخميني مسيرة الجهاد والثورة».